٢١٦

HARLEQUIN

روايات احلام

قيود من رماد

ليز فيلدينغ

www.elromancia.com

مرمورية

قيـود من رمـاد

❖ لن ترحلي إلى أي مكان، آنســة ناش... ألم أوضح لك هذا جيداً؟

كان تشاي بوكانن قد حذرها من المصير الذي ينتظرها إذا تسللت إلى مخبئه السري، ولكن صوفي كانت مستعدة لركوب المخاطر في سبيل شقيقتها التوأم...

مع هذا، لم تتصور أن يؤدي عملها إلى احتجازها في زنزانته كما هددها من قبل... وفي محاولاتها اليائسة للخلاص، أدركت صوفي أن ثمن الحرية الذي حدده تشاي أكبر بكثير من أن يستطيع قلبها تحمله!

www.elromancia.com

ليز فيلدينغ

ولدت في «بيركشير» وتلقت تعليمها في مدرسة تابعة لدير، في منطقة «ميدنهيد». عندما بلغت العشرين من عمرها سافرت الى أفريقيا لتعمل كأمينة سر في «الوساكا»، حيث قابلت زوجها المهندس المدني «جون». أمضيا معاً السنوات العشر التالية يعملان بين أفريقيا والشرق الأوسط. بدأت تكتب الروايات في الليالي الطويلة التي يكون فيها زوجها مسافراً في رحلات عمل.

تقيم ليز وزوجها الآن في «ويلز» مع ابنتهما إيما وابنهما وليام.

١ ـ تحدي الخطر

علقت صوفي ناش منتصرة، بصوت هامس مكبوت:

ـ لقد ضبطتك . . يا شاي بوكانن!

انتظرت طويلاً، جاثمة على أفريز صخري يرتفع خمسين قدماً عن الشاطىء . . طوال بعد ظهر بدا وكأنه لن ينتهي، لم يتسنَ لها فيه أن تريح ظهرها أو أن تمدد ساقيها . . انتظرت طويلاً جداً . . لتخاطر الآن، وتفضح نفسها.

وكادت تستسلم. كانت الشمس تغوص في البحر بسرعة، حاملة معها النور الثمين. عشر دقائق أخرى، هذا ما وعدت به نفسها، وبعدها سينتهي هذا العذاب وتتسلق الخمس عشرة قدماً، أو ما يقاربها، لتعود إلى قمة الجرف الصخري . . وكانت قد انبطحت على الصخور والتصقت بها . . بدت الرؤية أوضح من قمة الصخور الآمنة، وكانت واثقة من أنها ستتمكن من مراقبة مساحة أوسع من الشرفة الممتدة بين البرج والبحر. لكنها أخطأت في حساباتها، ورؤية بركة السباحة وحدها، أبقتها متشبثة بهذا الوكر، تصلي كي يغري ارتفاع الحرارة المفاجىء، طريدتها بالسباحة . . وأخيراً هذا ما حصل.

كان الرجل الذي ركزت عليه عينيها، يتطلع إلى البحر، وقد رفع يده إلى فوق ناظريه ليحميهما من الشمس الآفلة . . فتحت غطاء العدسة فيما راحت الرياح تتلاعب بخصلة من شعره الأسود، لترفعها عن جبينه . . إنه مسترخٍ، مرتاح في مخبئه الآمن، لكن كل هذا سيتغير إن اكتشف أنه

مراقب.. وارتجفت بالرغم من الحرارة المرتفعة. لقد حذّرها بوضوح أن تبقى بعيدة عنه.. حذرها من أنه لو وجدها في مكان قريب من برج المراقبة القديم، والذي أصبح منزله، وفي يدها آلة تصوير، فسوف تختبر زنزانة البرج التي لا تزال فعّالة.

أبعدت صوفي عن ذهنها فكرة السجن المزعجة داخل البرج المظلم المعزول. وأقنعت نفسها بأنه، يمازحها ويحاول إخافتها لتبتعد.. حسن جداً.. سيكتشف أنها لا تخاف بسهولة.. وزنزانته ليست سوى قبو في هذه الأيام. كما أنها لم تتسلل.. ولا يمكنه شيئاً حيال ذلك. أوه.. لا؟ تبادرت الفكرة إلى ذهنها قبل أن تتمكن من منعها.. لا! إن حدود أملاكه تبدأ في الجانب الآخر من الصخور الضخمة الشاهقة، التي تحمي خلوته جيداً.. تحمي كافة التفاصيل ما عدا البركة قرب البحر.. ولن يعلم بوجودها هنا إلاّ بعد أن تظهر صوره إلى جانب صور نيغل في مجلة «المشاهير».

حرّكت العدسة وثبتتها على لقطة جانبية لكتفين سمراوين جميلتين، لا تسترهما سوى منشفة ألقيت عليهما.. كانت بشرة ظهره تلمع كالبرونز، وبدت ناعمة في ضوء الغسق، ناعمة وقوية العضلات، وكأنه تمثال قديم لرياضي رأته ذات مرة في المتحف.

وبسرعة، رفعت العدسة الطويلة إلى وجهه، وكادت تقفز مجفلة وهي تركزها عليه. فقد بدا فجأة قريباً منها بما يكفي لتلمسه.. وتبخّر إحساسها الأول بالانتصار حين أدركت مدى تجاوبها مع هذه الرجولة المغوية، حتى عن هذا البعد. فرؤيته تثير الاضطراب، وأول لقاء بينهما.. وأحست بحرارة الخجل بسبب الطريقة التي حرّكت فيها عيناه الخبيرتان الدعوة الخيالية.

لم يكن وسيماً بما للكلمة من معنى.. فشاي بوكانن لا يملك القسمات التي ينطبق عليها مثل هذا الوصف.. وجهه خشن، مفعم بالحياة، ويعكس متاعبها.. وتحركت بانزعاج عندما عاودتها ذكرى

تصرفها الساذج حين دقت على باب قلعته، وسألته ما إذا كان يسمح لها بأن تلتقط له صورة. كان يجب أن تعرف أن الأمر ليس بهذه البساطة، وإلا لما طلب نيغل منها هذا.. وانهمر سيل من الأحجار الصغيرة حين حرّكت قدمها.. وأحست برعب مفاجىء، وكأن العالم كله قد سمعها. وأسندت نفسها على الصخرة، وكتمت أنفاسها، فيما اندفعت الحجارة إلى البحر.

لكنها لم تسمع صيحة غضب.. وأخيراً تشجعت وأطلت من فوق الصخرة.. لم يحرك ساكناً، كانت نظراته مركزة على يخت بعيد تنفخ الريح في أشرعته وهو يشق عباب البحر.

فجأة استدار فأخذت نفساً عميقاً لتهدىء أعصابها... غطى ذلك الوجه الذي لا يُنسى، حاجبان سوداوان كثيفان يعلوان فوق عينين بلون البحر الأخضر بدتا هذا الصباح وكأنهما تسبران أغوارهابحثاً عن أسرارها. وكان عليها وهي تتطفل في هذه اللحظات على عزلته أن تذكّر نفسها بأنه يجهل أنها وجدت شرخاً في درعه.. ولو عرف، لما وقف مسترخياً مرتاحاً على حافة البركة.

لقد أوضح لها شاي بوكانن وبشكل جلي، أنه لا يرحب بالمتطفلين.. وآخر صور التقطت لهذا الرجل، كانت منذ أكثر من ست سنوات، حين كان يقف متجهم الوجه قرب قبر شقيقه.

كان وجهه مثالياً دون التفكير بمقاييس الجمال، وقد أضفى اللون الأسمر على بشرته مظهراً مهيباً، فبدا كقراصنة البحر.. ذلك النوع من الرجال الذي يحتجز أعداءه فعلياً في زنزانة.. وتململت صوفي بانزعاج. فمه عريض، ولعله جميل حين يبتسم، لكنها لن تكتشف ذلك. فحين رأته آخر مرة كان مشدوداً من الغضب وأشبه بخط رفيع فوق ذقن لا تلين.. رفعت الغطاء عن العدسة مجدداً، والتقطت له صورة لتحتفظ بها لنفسها.

جذب المنشفة عن كتفيه، ورماها على الصخور تحت قدميه.. وتسمّر إصبعها على زر العدسة، لتلتقط لحظة القوة والرشاقة حين تحرّك جسده وقفز في ماء البركة المحفورة في الصخور.

استندت صوفي إلى الصخرة، لتستعيد أنفاسها، بعد أن التقطت سلسلة من الصور للكاتب الغامض، البعيد عن الأضواء. وجعّد جبينها عبوس خفيف وهي تراقب الرجل يتحرك بنشاط في الماء.

لقد اختال شاي بوكانن ذات مرة على المسرح الأدبي وكأنه الليث الجبار، مدلل وسائل الاعلام.. لكن، مضت سنوات لم يظهر فيها بصفته الاكتشاف الأدبي الأبرز لهذا العصر... سنوات منذ ارتفع نجمه، واحتل كتابه قمة المبيعات في لندن ونيويورك، ومنذ حصل على أكبر جائزة أدبية.

منذ ذلك الحين.. لا شيء. لم يُصدر كتباً تستحق الجوائز، وترتفع إلى قمة لائحة أفضل المبيعات، ولم تلتقط له صور برفقة النساء الجميلات لتملأ صفحات المجلات، لقد اختفى بكل بساطة.

لقد أدار ظهره للعالم، بحسب قول نيغل. باع منزله في لندن، وانتقل إلى هذه الجزيرة المعزولة، وأي صور حديثة له ستشكل سبقاً صحفياً.. وستثير التكهنات وإن كانت الوقائع قليلة. فهو هدف مثالي للمجلات التي تحيا على فضائح الوجوه المعروفة وأخبارهم.

اشتدت قبضة صوفي على علبة الفيلم وهي تضع الخطط لهذه الصور. بعد اليوم، لن تشعر حيال هذا الرجل سوى بالشفقة. ومع ذلك، أحست بشيء من الاشمئزاز مما فعلته، واضطرت إلى مقاومة رغبة مفاجئة في رمي الفيلم في البحر، فهي تكره هذا النوع من المجلات.

نظرت إلى علبة الفيلم.. وقبل أن تقدم على أي عمل، وضعتها في جيب قميصها، وذكّرت نفسها بأن لا خيار أمامها. فإن لم يكن لدى شاي بوكانن ما يخفيه، لن يتمكّن نيغل من أذيته. وأصمّت أذنيها بحزم عن الصوت الملح الذي راح يردد لها أنها تخدع نفسها.

وبشكل آلي، أعادت وضع فيلم جديد في آلة التصوير. وعادت عيناها مرة أخرى إلى الطيف القوي لشاي بوكانن. كان قد توقف عن السباحة، واستلقى على ظهره في الماء، لينظر إلى البرج. راقبته صوفي.. شبه مسمّرة. أسرها جمال جسمه اللامع الذي راح يعلو ويهبط مع تموجات

مياه البحر، المتدفقة عبر الشق الضيق بين الصخور. وجعّدت تقطيبة خفيفة جبينها، وهي تتساءل عما يفعله، وكادت تتجمد، مع سريان قشعريرة الإثارة في جسمها.. إنه يراقب شخصاً ما.. هناك شخص آخر على الشرفة.

التصقت بالأفريز الصخري، وحسّنت من موقعها بقدر ما تجرأت، ومدّت جسمها من فوق الصخور لترى بشكل أفضل. من تراه يكون؟ امرأة؟ أرجوك.. أرجوك.. وأخذت تتوسل إلى قدرها اللطيف، ليكون الشخص الآخر امرأة.. شخص مثير بما يكفي.. شخص مشهور، ممثلة معروفة، عارضة أزياء... شخص مثير ليعوّض عن دخولها إلى البرج.. خبر يرضي نيغل فيعطيها ذلك المغلف الثمين.

تدلّت من فوق الحافة قليلاً، وهي تجهد لتتمكن من رؤية بضع إنشات أخرى من التراس. لكن الصخور الكبيرة العالية التي تحمي البرج من الأعين المتطفلة، شكّلت عائقاً ومنعتها من الرؤية.. ورفع شاي بوكانن ذراعيه مشجعاً الرفيق الخفي، وأكد لمعان أسنانه البيضاء أنه كان يضحك.. ولقد كانت على صواب فيما يخص فمه.. ومرت لحظات طويلة، قبل أن تتذكر مهمتها وتخلد هذه اللحظة في صورة.

حركة مفاجئة، دفعتها إلى العمل. لكن الجسم الذي ارتمى بين الذراعين المفتوحتين لم يكن لحسناء شهيرة.. بل لطفل.. صبي أسود الشعر، متناسق القسمات.. يتراوح عمره ما بين الخمس والست سنوات. بدا مرتاحاً في الماء كوالده.. وأبقتها الدهشة مسمرة للحظة.. نعم، لا مجال للخطأ.. فالشبه بارز جداً. لكن نيغل لم يأت على ذكر ولد، أو زوجة، كما لم يكن يبدو على شاي بوكانن مظهر الرجل المتزوج.

طردت هذه الفكرة من رأسها، وراحت تضغط على زر التشغيل.. وبأصابع مرتجفة، رمت الفيلم المستخدم في حقيبتها، ووضعت فيلماً جديداً في آلة التصوير. ولم يعد هناك ما يكفي من النور لالتقاط الصور البعيدة المدى.. كانت الشمس تزحف مسرعة نحو البحر، ومع ذلك

بقيت تتابع مهمتها، وعينها مسمّرة على الآلة، والطيفان في وسط العدسة. ثم رأت الصبي يشير نحو الصخور.. نحوها.

ضاقت عينا شاي بوكانن وهو يرصد الصخور، وتحوّل ذلك الفم إلى خط غاضب حين لمعت الشمس الغاربة فوق العدسة الموجهة نحوهما، لتفضح أمرها.. وتصادمت عيناهما للحظة.

ارتجفت أصابعها، لكنها راحت تقنع نفسها بأن لا داعي للعجلة، وأخرجت الفيلم من آلة التصوير. فإلى أن يجفف نفسه ويرتدي ثيابه، ويصل إلى حيث أخفت سيارتها عن العيون، ستكون قد رحلت ومنذ وقت طويل.. وأخذت تعيد هذه الكلمات في رأسها مراراً وتكراراً وكأنها صلاة.. ستتسلق هذه المسافة البسيطة السهلة، وستبتعد، لكن يديها ارتجفتا قليلاً وهي توضب الكاميرا بسرعة في مكانها في الحقيبة. حملتها على كتفها، ونظرت إلى الدرب الذي ستسلكه ثم مدت يدها لتتمسك بما يساعدها على بدء مشوارها.

لكن الأمر كان صعباً بشكل لم تتوقعه، فساعات المراقبة الطويلة، والبقاء دون حراك، جعل أطرافها متيبسة. وراحت ساقاها ترتجفان وهي تجبرهما على دفعها صعوداً.. وانزلقت يداها المبللتان عرقاً عن الصخرة الناتئة التي تمسّكت بها والتي أصبحت فجأة زلقة، وأخذت تفكر في شاي بوكانن المسرع لاعتراض طريقها. واضطرت إلى التوقف.. وأخذت نفساً عميقاً، وذكّرت نفسها بأن الأمر سهل، وأنها لن تضطر لقتل نفسها من أجل بضع صور.. ولو كان الأمر خطراً، لما جازفت.

حتى من أجل جيني؟ وجدد التفكير بأختها قوة عزمها.. لقد رأت الطريق واضحة حين نزلت. والأمر بسيط للغاية، يكفي أن تحافظ على رباطة جأشها، وتتناسى الهوة تحتها، وأن تتسلق الممر صعوداً إلى قمة الصخور قبل وصول شاي بوكانن. وحثتها فكرة اللقاء به مجدداً على الاستمرار.

صرّت على أسنانها حين أحست بألم في ساعدها. ومع كل خطوة

معذبة خطتها صعوداً، أخذت تلعن شاي بوكانن.. كل ما كانت تريده، هو صورة واحدة.. صورة بسيطة تزيّن مقالة نيغل، وقد طلبتها بكل أدب.. ولو لم يكن فظاً لتقبلت رفضه.. فليس من عادتها أن تتلصص على الناس، وتلتقط الصور لأشخاص يفضلون أن يتركوا وشأنهم.

مدت أطراف أصابعها إلى الأعلى.. وقد تملكها شعور باليأس. لا بد أنها تكاد تصل؟ لكن الخمس عشرة قدماً، بدت فجأة كخمسين، وكثرت الصخور التي ستمزق أظافرها وتخدش بشرة أصابعها.. بدا النزول سهلاً، إذ عثرت على الكثير من مواطىء القدم.. وراحت تقنع نفسها بأن الأمر أشبه بالتلة في الحديقة العامة حيث كانت تلعب مع جيني وهما صغيرتان. لكنها عادت وحذّرت نفسها ساخطة من أنها حين كانت تنزلق في الحديقة العامة لم يكن تحتها هاوية عميقة تصل إلى البحر، كفّي عن هذا! فلو وقعت، ستسقط على الأفريز الصخري.. ستكون سقطتها خطيرة ومؤلمة، ليس إلا؟ وماذا لو صدمت رأسها؟ وتدحرجت حتى الهاوية؟

جعلها الذعر تنظر إلى الأعلى.. وكاد التغيير في موضع ثقلها يوقعها، فرمت بنفسها على الصخرة وأغمضت عينيها لتمنع الدوار الذي شوش ذهنها. وللمرة الأولى، أحست بخوف حقيقي يسري ببرودة في عمودها الفقري، وتماسكت وهي تتساءل كم من الوقت ستمسك هكذا قبل أن يصبح الألم في ذراعيها والضعف في ساقيها أقوى من أن تحتملهما، فتقع بكل بساطة.

ـ هل يمكنني أن أقدم لك يد المساعدة يا صوفي ناش؟

انتفض جسمها كله صدمة بسبب هذه الدعوة الخشنة، وجهدت كي لا تفقد توازنها، فرفعت نظرها إلى الأعلى مجدداً، لتجد عينين لا قرار لهما تراقبانها. كان منبطحاً على الأرض، يمد نحوها يده... هل هو بهذا القرب؟ هل كانت قريبة إلى هذا الحد؟ أحست برغبة في البكاء لشدة إحباطها، لكن كرامتها منعتها فحبست دموعها.. وبدلاً من ذلك، نظرت إلى اليد القوية العريضة، وتجاهلت طوق النجاة عمداً، وصاحت بصوت

أجش:

ـ أستطيع تدبّر أمري.

وكأنما لتستعرض قدرتها، أمسكت بأقرب نتوء صخري ورفعت نفسها بعض الشيء.

فقال ينصحها ببرودة: «أعتقد أنه من الأفضل أن تمسكي بيدي، فلن أوقعك بالرغم من رغبتي في ذلك».

لكن هذا الإنجاز الصغير أعطاها مزيداً من الجرأة، وتدفق الأدرينالين في عروقها. وقامت بتحريك قدم أخرى قبل أن تضطر مجدداً إلى التوقف. أسندت خدها إلى الصخر الذي راح يبرد بسرعة، وحاولت تخفيف الضغط عن أطرافها وتنشّق كمية أكبر من الهواء عبر حنجرتها الجافة ظمأ. لم تكن تعرف أنه من الممكن أن تتألم بهذا القدر.

قال بصوت لجوج:

ـ لا تكوني عنيدة يا صوفي. . لن تستطيعي الصعود دون مساعدة.

كان وجهه الصقري الملامح أكثر قرباً. مد يده إليها. . فشهقت:

ـ دعني وشأني.

لكن الكلمات لم تتعد الهمس، قال بلهجة الآمر: «كلمات رائعة. . تذكريها. . هذا إذا ما عشت كفاية».

كررت: «أستطيع تدبر أمري!».

وانقلب الصوت إلى صراخ حين انزلقت قدمها واصطدم جبينها بحدة بالصخور وهي تفتش بأصابع قدمها عن موطىء لها لتوقف سقوطها. . وتأرجحت بعنف لتتوقف عن الانزلاق حين أمسكت يد شاي بوكانن بمعصمها. رفعها فوق الحافة، ثم جذبها بقبضة أشبه بالملزمة، ليتدحرج معها بعيداً عن الهوة الفاغرة فمها.

تذمرت بمرارة: «لقد خلعت ذراعي!».

وترقرقت الدموع في عينيها لشدة ألمها.

ـ وهل كنت تفضلين أن تقعي؟

لم ترد. . لم تستطع أن تجيب بسبب الألم والدموع. . وحرك لها ذراعها، دون لطف، فتأوهت، وأحنت رأسها ليقع على صدره العاري:

ـ لم أخلع لك شيئاً. . أرأيت؟ ذراعك بخير. . ولا يعود الفضل لك في ذلك.

لا عجب في أنه وصل بسرعة. . فهو لم يتكبد عناء تجفيف نفسه، أو ارتداء أكثر من سروال قصير. . لكنها كانت من الضعف بحيث لم تتحرك وبقيت جامدة، تضغط خدها على شعر صدره الأسود، وتستمع إلى دقات قلبه الثابتة، فيما تحاول استعادة قوتها. . إنما لم يكن قد انتهى منها بعد.

أمسك بشعرها ورفع رأسها مما اضطرها لمواجهته: «هواياتك خطيرة يا صوفي ناش. . لكن، هذه ليست هواية. . أليس كذلك؟».

صرخت، واغرورقت عيناها بالدموع من جديد، لكنه لم يأبه، بل اشتدت قبضته، بحيث استحال عليها أن تتحرك دون أن تتألم.

ـ مع ذلك، فتسلق الصخور وحيدة، دون حبل نجاة، أكثر الأعمال غباء وتهوراً.

وصمت. . كان من الواضح أن غضبه أشدّ من أن يتابع كلامه. . إنه غاضب فعلاً. . عينا القرصان كانتا شرستين بما يكفي ليقتل.

ـ هل يعرف أحد أين أنت؟ ولو وقعت هل كان أحدهم ليعرف ما حدث لك؟

كيف يمكنه أن يكون قاسياً دون قلب إلى هذا الحد؟

فقالت شاهقة: «كانوا سيجدون سيارتي».

كرر، بلهجة من لم يصدق: «كانوا سيجدون سيارتك؟ هنا بعض آثار صوفي ناش. . نعرف إنها هي، لأننا وجدنا سيارتها. يا لها من كلمات تنقش لإحياء ذكراك!».

ولعل الدموع الصامتة التي انهمرت على وجهها لتصل إلى صدره، جعلته يرخي قبضته من على شعرها، فأطلقت أنين ارتياح. . لكنه لم ينته

بعد، بل أضاف:

ـ دعيني أقول لك يا فتاة، ليس أمامك أي مستقبل كمصوّرة صحافية حرّة، إذا كنت ستتجاهلين أبسط احتياطات السلامة.

قالت محتجة: «أنا لست مصورة صحافية حرّة».

ـ هذا هو الانطباع الذي تتركينه.. بحق الله هل تستحق صورتي أن تخاطري بحياتك؟ من كلفك بهذه المهمة، لا بد أنه وعدك بمبلغ ضخم.

قطب، ثم انقلب ليثبتها على الأرض الصخرية، ويسحقها بوزنه حتى كادت تعجز عن التنفس.

ـ من هو.. يا صوفي؟

المال؟ وهل يعتقد أنها تفعل هذا من أجل المال؟ أيام من التجوال في المنتجعات عند طلوع الفجر، وأماكن العطلة المهجورة، لتجعل من أفضل الفنادق أماكن غريبة، ملفتة ومرغوبة للاستجمام، هذا هو عملها، وهذا ما تقبض المال لقاءه.

إن محاولتها التقاط صورة لشاي بوكانن العظيم، أثناء وجودها على الجزيرة، لم يكن بهدف الحصول على المال.. بل من أجل شيء أثمن بكثير.

استلقت، أضعف من أن تتحرك، ورأسها يضج بالألم بعد أن أمسكها بشعرها.. ولعل السبب يعود إلى تلك الضربة التي تلقتها على جبينها. وكم كانت ترغب في تلمس مكان وجعها، وأن تتفحصه، لتقدر مدى الإصابة. لكن ثقل جسمه ثبتها في مكانها، فرقدت هادئة عاجزة.. وفتحت عينيها لتلاقي الضراوة الغاضبة في عينيه.

قال يسأل: «حسن جداً؟».

لقد كانت غبية.. وتدرك هذا.. وهي مستعدة للاعتراف بذلك لنفسها. لكنها لن ترضيه هو وتقول له ما يود سماعه، ولن تخبره عن نيغل، إذ أن هذا الأخير لن يعجبه ذلك أبداً.

وأخيراً تمكنت من إخراج الكلمات، فقالت:

ـ أردت الحصول على صورة لك، لأعلقها على الجدار في غرفة نومي. أنا من أشد المعجبين بك.

للحظة، بدا مشوشاً.. ثم ارتسم على شفتيه طيف ابتسامة ساخرة:

ـ لا أظن هذا.. يا آنسة ناش.. أعتقد أن المسألة أكبر من هذا بكثير كي تستحق أن تجازفي وتنزلي إلى هذه الهوة.

ـ أنت متواضع جداً يا سيد بوكانن، أضف إلى هذا أن الأمر كان سهلاً جداً.

لكن الألم في كتفها، ورأسها، ويديها الممزقتين النازفتين عكس كذبها.. فالنزول وحده كان سهلاً.

قال ساخراً: «سهل؟ لو كان سهلاً، لما كنت مستلقية هنا.. بل لركضت إلى مطار «لوكا» مع مكتسباتك التي حصلت عليها بطريقة دنيئة».

بقيت مستلقية على الصخر القاسي.. إنه على حق طبعاً. الآن سيأخذ الأفلام منها، وستضطر لأن تقول لنيغل بأنها فشلت، وتتوسل إليه، لكن صوتاً صغيراً أجوف أعلمها بأن نيغل لن يأبه لتوسلاتها.. على أي حال، لا يجب أن يعرف شاي بوكانن مدى أهمية هذا الأمر.

قالت، وكأن تسلق الصخور أمر عادي بالنسبة لها:

ـ لم أكن على عجلة من أمري، لقد.. أعجبني المنظر.

فرد قائلاً: «لن تعترفي.. أليس كذلك؟».

بدا جلياً أنه غضب لإظهارها مثل هذه الشجاعة، فابتعد عنها، وترك عينه تتأملانها بطريقة مهينة بدءاً من عينيها الرماديتين الصافيتين، مروراً بأنفها العادي، وصولاً إلى فمها الممتلىء الكبير، لتتوقفا بعد ذلك عند صدرها اللاهث.

ـ أنت محقة في أمر واحد.. لا بأس بالمنظر.

أحست صوفي بالحمرة تتدفق إلى وجهها وقد أدركت مدى ضعفها، وهي مثبتة إلى الأرض بثقل جسمه، دون أن تقوم بأي جهد لتحرر نفسها..

قالت متبجحة: «كيف. . كيف تجرؤ. . ؟».
وحاولت التخلص منه، لكنه ثبتها دون جهد بذراعيه القويتين.
ـ لا تحاولي التظاهر بالخجل يا صوفي. . هذا الصباح، كنت على استعداد لدفع أي ثمن لقاء تلك الصورة.
ـ هذا غير صحيح! دعني أذهب!
راح يلامس بأطراف أصابعه عنقها فانكمش جسمها كله، وقالت بصوت حاد: «ماذا تفعل. . ؟ توقف عن هذا!».
ـ أنت لا تعنين ذلك، يا صوفي ناش، ولا داعي للحرج. لكن أخشى أنّ هناك أمور أخرى تشغل تفكيري في الوقت الحاضر.
فتح جيب قميصها، وأخرج الفيلم الذي خبأته فيه. . ثم، دون تردد، فتش جيوبها الأخرى بينما أخذت تتلوى حرجاً.
أخيراً سألها: «لفافة واحدة فقط؟».
ابتلعت بريقها. . ثم، هزت رأسها ببطء شديد. وللحظة، حدق فيها، فكتمت أنفاسها، واثقة من أنه سيتحداها، وسيلاحظ كذبتها الواضحة. لكن خديها كانا ملتهبين من لمساته، فبدا أنه اكتفى، ووقف، وشدّها معه لتقف، ثم أسندها حين رفضت ساقاها أن تطاوعاها، وجرها إلى الحافة مجدداً.
حاولت التراجع: «لا!».
لكنه أمسك بها بسرعة، ولم تحاول أن تخلص نفسها خوفاً من الوقوع.
سألته: «ماذا. . ستفعل؟».
لم يرد، إنما أمسك بيدها المجروحة النازفة ووضع لفافة الفيلم فيها، ثم أطبق أصابعها المتيبسة المتورمة حولها، فرفعت نظرها إليه بارتباك.
قال آمراً: «ارميه إلى البحر، يا صوفي ناش».
جاءت كلماته صدى مخيفاً للأفكار التي راودتها وهي في الشق. . لكن أفكارها هذه كانت قبل أن تعبث يداه بجيوبها دون التفكير بمشاعرها،

وتساءل ضميرها النشيط عن مشاعره هو. . لكن موقفها لم يسمح لها بالإصغاء إلى مثل هذا الجدال. . فليس لديه مشاعر، إنه مجرد رجل متسلط ضخم.
تحدّته: «لا!».
شدت يده على ذراعها بقوة أكبر، وقال: «افعلي ما أقوله لك».
ـ لا. . اللعنة عليك. . لقد عملت جاهدة لأحصل على هذه الصور. . فقم أنت بعملك القذر.
ـ هذا كلام كبير، يصدر عمن يتجسس على الناس ليكسب معيشته. . ارميه!
للحظات طويلة واجهته بذقن مرفوع، وعينين ملتهبتين. . فأمرها مجدداً:
ـ ارميه!
ببطء، وبالرغم منها، استدارت لتنظر إلى أمواج البحر الأبيض وهي تتكسر على الصخور. . وراحت تترنح، لكن شاي بوكانن جذبها إلى الوراء وهو يشتم بشراسة. . أطلقت آهة خفيفة، واستدارت لتدفن وجهها في صدره. . ضمها إليه للحظات، وقد أدركت أنه على صواب. . كان من السهل جداً أن تقع.
ها هي بين ذراعيه، تستند إلى دفء صدره، تكاد تغرق في رائحة بشرته، رائحة العرق اللاذعة الحادة الممزوجة برائحة ماء البحر القوية. أرادت منه أن يشدها إليه أكثر، وأن يعانقها هنا. . وكان لهذه الأفكار وقع الصفعة على وجهها.
وابتعدت عنه مذعورة من مشاعر متوحشة كادت تشعر بطعمها. وترنحت على ساقين أضعفهما ما هو أشد من الخوف من الوقوع. . يجب أن تبتعد عن هذا الرجل وبأسرع وقت ممكن. . وليس بسبب ردة فعلها المخيفة نحوه، وحسب، فقد وجد فيلماً واحداً، ويمكنها أن تنجو منه وتحتفظ بالأفلام الأخرى. . وتتمكن من تسجيل لحظة انتصار.

انحنت لتلتقط حقيبتها، وأنّت لثقلها الذي سحق أصابعها. . ثم ترنحت قليلاً وقد مادت الأرض تحت قدميها. . وعاد الإحساس إلى أصابعها بقوة، فلسعها الألم من الجروح والخدوش وجعلها تشعر بالغثيان.

ـ محاولة جيدة يا صوفي. . لكنني سأحتفظ بالفيلم.

أمسك بمعصمها ليديرها بعنف. . وللحظة ظنت أنه اكتشف الحقيقة، لكنه فتح أصابعها المطبقة على الفيلم، وانتزعه بقوة. فصدرت عنها صرخة ألم لم تتمكن من كبتها. نظر إلى يدها، ثم قال بحركة حادة:

ـ من الأفضل أن تدخلي إلى المنزل لتنظفي هذه.

احتجت بصوت أجش: «أنا بخير. . سأعود إلى فندقي».

لكنها كانت قد تركت الفندق، ووضعت حقائبها في السيارة، وستتوجه مباشرة إلى المطار حيث يمكنها أن تغتسل وتغير ثيابها لترتدي الثوب الذي كانت تلبسه حين زارته في وقت مبكر. . وبعد حين، ستصبح بعيدة عنه.

قال غير مصدق: «أتظنين نفسك قادرة على قيادة السيارة وأنت في هذه الحالة؟».

فأجابت بيأس: «هذا لا شيء. .».

صمتت قليلاً، ثم قالت على مضض: «أعتقد أنه عليّ أن أشكرك لإنقاذي».

ـ أجل. . يجب عليك ذلك. . لكننا بعيدان جداً عن المجاملات، فمن الأفضل ألا تزعجي نفسك بذلك.

اقشعر بدنها للهجته المحتقرة، وردت:

ـ في الواقع لن أفعل يا سيد بوكانن. . ويمكنك أن تطمئن إلى أنني لن أزعجك مجدداً.

ـ أتمنى لو أستطيع تصديق هذا يا صوفي ناش. . فلماذا لا أستطيع؟

تركزت عيناه على الحقيبة التي كانت تؤلم كتفها. وقبل أن تتمكن من

منعه، انتزعها منها، وأخذ يزنها بيده مفكراً:

ـ ربما من الأفضل أن أحتفظ بهذه، لأكون آمناً.

اتسعت عيناها الرماديتان ذعراً، ورمت بنفسها عليه تحاول الإمساك بالحقيبة، وصرخت: «لا!».

لكنه أبعدها عنها دون جهد، وسألها: «لا؟».

ـ إنها آلة التصوير. . لا أستطيع العمل من دونها.

ـ وهل من المفترض بذلك أن يؤثر على طبيعتي الطيبة؟ بصراحة، لا يرد إلى ذهني أمر يسرني أكثر.

فردت بحدة: «أشك في أن تتمتع بطبيعة طيبة».

ـ إذن، بدأت تظهرين شيئاً فشيئاً من التعقل أخيراً.

ثم نظر إلى الحقيبة، وأضاف:

ـ هل هذه آلة التصوير فقط؟ وهل تحمّلت كل هذه المشقة لالتقاط فيلم واحد. . منذ متى وأنت في الشق؟

ـ منذ ساعات، لكنك لم تظهر سوى لبضع دقائق.

ـ هذا صحيح. . لكن كم يستغرق من الوقت التقاط الصور بآلة التصوير الاوتوماتيكية؟

فاعترفت، قائلة: «ليس وقتاً طويلاً».

ثم حاولت أن تجازف وهي تضيف:

ـ في الواقع، أحمل في حقيبتي ستين فيلماً مستعملاً. كنت أعمل طوال الأسبوع لحساب شركة سياحية، ألتقط الصور لكتيبات الدعاية للسنة القادمة.

ـ وتتوقعين مني أن أصدق هذا؟

راحت يداها ترتجفان ألماً ورفعتهما بإشارة عجز خفيفة، وقالت:

ـ ولمَ لا؟ إنها الحقيقة.

وابتلعت بريقها. . وأدركت أنها ستتقيأ، وودت لو يتركها تذهب كي تجلس للحظات. . لكنه لم يلن.

ـ هيا يا صوفي ناش. . لا تتوقعي مني أن أصدق أنك قد تخاطرين بكل هذا العمل؟

ـ أخاطر؟

لم يعد لأي شيء معنى. . فهي الآن في خطر.

ـ كان يمكنك أن توقعي حقيبتك وأنت تنزلين.

وتلعثمت: «أنا. . كنت حذرة جداً».

خطت خطوة. . لكن الأرض بدت وكأنها من مطاط. ومدت يدها لتثبت خطواتها، فالتقطها، سائلاً:

ـ ما الأمر؟

ـ أنا آسفة. .

وبدا لها صوتها آتياً من مسافة بعيدة: «أخشى أنني سوف. . .».

رفعت يدها إلى رأسها، ورأت الدم يجري على أصابعها. . ثم أظلمت الدنيا من حولها.

* * *

٢ ـ في الزنزانة

استفاقت صوفي على رأس ينبض ألماً، وفم جاف، وجسم يتوجع. كانت الغرفة معتمة، وقد تسلل إليها نور خافت عبر نوافذ طويلة أقفلت مصاريعها. رفعت معصمها لترى الوقت، فسمعت تأوهاً. . ومرت لحظات قبل أن تدرك أن الصوت صادر عن شفتيها.

نظرت إلى أصابع مجروحة متورمة، بدت وكأنها عُصرت. . وأنّت. . إنها أصابعها. . وعاودتها الذكرى بسرعة، وترافقت مع شيء من الإرباك.

نظرت حولها إلى الغرفة الغريبة، ثم أدركت والذعر يعتريها، أنها في عرين الأسد. . بل أسوأ من ذلك. . وتأوهت. . إنها في فراش الأسد.

دفعتها هذه الفكرة إلى إبعاد الشرشف الناعم عن جسمها المحتج. . لكن، وفيما كانت ترفع نفسها وتستند إلى ظهر السرير المحفور الضخم، انزلق الغطاء عن جسمها، فتبيّن لها أمر آخر لم تدركه من قبل. . إنها ترتدي ثياب نومه. أمسكت بالغطاء بين أصابعها بحذر شديد ورفعته. . شخص ما نزع عنها ثيابها، وألبسها ثيابه.

من؟ وبدا لها من المهم جداً أن تتذكر. . ثم، وبسرعة، صدّت الفكرة قبل أن تعود إلى ذهنها، فهي لا تريد إطالة النظر في إمكانية أن يكون شاي بوكانن هو الذي بدل لها ملابسها وهي فاقدة الوعي.

كانت الغرفة طويلة واسعة، طليت جدرانها الحجرية بلون أبيض، وعلّق فيها لوحان من الزجاج، يلمعان باللونين الأخضر والأزرق. أما الأرض فمن الخشب اللماع الأسود، وقد فرشت عليها سجادة عجمية

www.elromancia.com

مقلمة. وفي ما عدا السرير، مصباحين طويلين صينين قربه، كان الأثاث الوحيد في الغرفة خزانة بأدراج ذات مقابض نحاسية ثقيلة، وخزانة ملابس ضخمة. إنها غرفة رجل، لم تعرف لمسة امرأة.

نهضت من السرير مترنحة، وسارت متعثرة إلى الحمام في طرف الغرفة. وفي منتصف الطريق، تساءلت كيف عرفت أنه الحمام.. لكن ترافق السؤال مع رد واضح.. وعلت وجهها حمرة كالجمر لما تذكرته.

لقد حملها إلى هنا.. وكانت تدرك بشكل ضبابي أنه يصعد بها درجاً واسعاً. ثم أوقفها.. وانصب ماء مفاجىء عليها، مما جعلها تشهق وتعود إلى الحياة.

حاولت أن تبتلع، لكن لسانها بدا ملتصقاً بحلقها وهي تتذكر كيف استندت إليه ببساطة، لشدة ضعفها، ورمت رأسها على كتفه، ليظهر التناقض بين بشرتها البيضاء الناصعة وبشرته السمراء القاتمة.. لم تتمكن من الاحتجاج وهو يمسك بخصرها، ويغسل يديها بالمطهرات، بأصابع لطيفة. لكن خطوط فمه القاسية المستقيمة، وعينيه الغاضبتين جعلت مشاعره نحوها واضحة للغاية.

لكن، هناك سؤال وحيد وجدت جواباً عليه.. ليس هناك «سيدة بوكانن»، فما من زوجة، مهما كانت متسامحة، يمكنها أن تتغاضى عما يجري. نظرت حولها، فأكد لها نقص التجهيزات الأنثوية ظنها، وأدركت أن المرأة التي تشارك شاي بوكانن فراشه ليست عنصراً ثابتاً.. وأجبرت نفسها على الوقوف ثابتة على قدميها، وفتحت باب خزانة الحمام: وهي ليست ضيفة دائمة لتترك فرشاة أسنانها. أغلقت الخزانة بسرعة، ووبخت نفسها بحزم، فهذا ليس من شأنها..

ـ هل رأيت ما يكفي أم أنت تحتاجين إلى جولة مع دليل؟

استدارت بحدة.. ثم تمنّت لو لم تفعل لأن الغرفة تمايلت وتملكها الغثيان، فاستندت إلى البلاط المترف البارد الذي يزيّن الجدران.. ثم تحركت جانبياً بعد أن انتبهت لصورتها المعكوسة في المرآة قرب

المغطس. كيف بحق السماء أصيبت بهذه الكدمة على كتفها؟ وأعاد الألم إلى ذهنها ذكرى خوفها حين رفعها بعنف وقوة فوق الحافة إلى بر الأمان.

قالت بشجاعة: كنت أبحث عن مضاد للألم.

تكورت شفتاه بسخرية، وقال: «بالطبع».

وأمسك بذراعها ليعيدها إلى السرير، مضيفاً: «استلقي الآن، وسآتيك بشيء يهدىء الألم».

ـ لست مقعدة.

ـ لا.. مجرد ألم في الظهر.. لكن من الأفضل أن تستلقي.

جلست بحدة على حافة السرير، لأن ساقيها لم تعودا قادرتين على حملها، وليس تنفيذاً لأوامره.

بدأت تقول بغضب:

ـ لو أحضرت لي ثيابي، لما عُدت مصدر إزعاج لك..

وصمتت.. لتستجمع أفكارها.. لن تتمكن من استفزاز هذا الرجل أكثر، فقالت بأدب مبالغ فيه:

ـ لو جئت لي بثيابي.. لسرّني أن أغادر منزلك.

فاقترح عليها أن تضيف: «أرجوك؟».

وللحظة لمعت عيناها الرماديتان الكبيرتان بشكل خطير.. وسألت:

ـ وهل يجب أن أتوسل إليك للحصول على ثيابي؟

ولم يرد.. بل انتظر.. وانتظر.. إلى أن قالت بوضوح، وعبر أسنانها المشدودة: «أرجوك».

ـ هذا أفضل.. لكني أخشى أن تكون ثيابك مغسولة، قد تحصلين عليها غداً.

ـ غداً! لكن هناك طائرة يجب أن ألحق...

ـ «كان» هناك طائرة عليك أن تلحقي بها، لقد اتصلت بالمطار وألغيت الحجز.

صاحت: «ماذا فعلت؟».

تناست الألم الحاد الذي كان يمزق رأسها ويذكرها بأن ما يعلو عن الهمس سيزعجها ويؤذيها.

وأكملت: «لا يحق لك أن تفعل هذا!».

لا يحق له أن يعبث بحقيبة يدها. . وأن يفتش في أغراضها الشخصية.

قال: «بما أن حالتك لم تكن تسمح لك باستخدام ذلك الحجز، وبما أن تذكرتك مفتوحة، ظننت أنك ستسرين بأن تتاح لك فرصة أخرى لإعادة الحجز. لكن، أعتقد أنه كان عليّ أن أتصرف بطريقة مغايرة».

فقالت، متجاهلة الحقيقة:

ـ أنا بخير!. . ويمكنك الاحتفاظ بالغسيل. . فأنا مغادرة.

وقفت وهي ترتجف بعض الشيء، وتشد ثيابه حولها. وخطت خطوة نحو الباب، لكن لتجده يسد طريقها. . فقالت: «وعلى الفور».

تراجع إلى الوراء، وفتح لها الباب: «كما تشائين. . لقد نقلت سيارتك إلى المرآب».

وكم ودّت أن تخرج، وذقنها مرفوعة، لكن هذا السروال الطويل اللعين، أعاق حركتها. وكانت تعي تماماً الضحكة الساخرة التي تلوي فمه وهي تسير جانبياً، وتتراجع نحو الباب. ولم يتحرك ليمنعها، بل أخذ يراقب محاولتها للخروج بوقار، بتسلية بالكاد أخفاها. وفجأة أدركت أن الأمر لن يكون سهلاً. . فتوقفت مترددة. وسألت: «لكن؟».

ـ لكن. . للأسف. . المفاتيح ليست معك. قد تكون يدك خفيفة في استخدام الأشرطة؟ ففي مثل مهنتك قد يفيدك هذا.

ـ بالطبع لا!

ـ لا. . يا للأسف، ربما يجب أن تتعلمي. . مع ذلك، يبقى أمامك مشكلة الثياب، لأنني احتفظت بحقيبتك أيضاً. . أم أنك لا تمانعين في الوصول إلى الفندق وأنت ترتدين ثياب نوم رجالية.

شدّت الثياب الواسعة عليها، لكن أصابعها المتيبسة لم تطاوعها

جيداً.

أكمل: «وبما أن الوقت مرّ بسرعة أكبر مما تتصورين، أود أن أعلمك أن الطائرة التي تتلهفين للحاق بها، قد أقلعت منذ ساعات».

نظرت صوفي إليه. . ثم استدارت إلى النافذة. . وإلى النور المتسلل إلى الغرفة. . وسألت:

ـ كم من الوقت مضى على وجودي هنا؟ كم الساعة الآن؟

نظرت إلى معصمها، وأضافت: «هل ساعتي في الغسيل أيضاً؟».

وركضت عبر الغرفة لتفتح أحد المصاريع وتسمح لشعاع نور بالدخول، ثم نظرت إلى الخارج. كان البحر هادئاً مسطحاً، ولونه أزرق يستتر وراء غلالة رقيقة من الضباب حجبت الشمس. . شمس الصباح المبكر.

ـ أمضيت الليل هنا؟

لكنه لم يكن سؤالاً. . فالرد المثير للأعصاب كان أمامها.

قال مؤكداً: «طوال الليل. . ألن يكون عنواناً مثيراً لصورك يا صوفي ناش؟ «ليلتي مع شاي بوكانن»».

قال هذا بلهجة مقنعة جعلت الدم يتدفق إلى بشرة جسمها الشاحبة.

قالت: «لا تكن سخيفاً. . أنا لم أمض الليل معك».

لكن فمها كان جافاً، ورفضت بعناد أن تستسلم لاستفزازه.

ـ لقد فعلت. . لكن المسألة مسألة تفسير. . أليس كذلك؟ كما أن الطبيب أصرّ على أن يراقبك أحد.

اتسعت عيناها لاارادياً. وألقت نظرة سريعة على السرير الكبير، فلم تجد جواباً على تساؤلاتها، واستفهمت:

ـ يراقبني؟

ـ في حال إصابتك بصدمة.

أرجعت أصابعه الطويلة خصلة شعر من على جبينها، ولامس بخفة موقع الكدمة، وأكمل:

ـ لقد أصبت بضربة قوية . . يا صوفي ناش .

أجفلت ، ورفعت يدها إلى مكان الكدمة ، لتتحسس الورم الخفيف . وأخذت نفساً طويلاً متقطعاً ، ولم تعرف سبب ارتباكها أهو الألم أم لمسة أصابعه الباردة . . ولعلها لم تكن ترغب في أن تعرف . لكنها أدركت أنه يستحيل عليها أن تبقى للحظة أخرى في برج شاي بوكانن .

قالت بكل الوقار الذي استطاعت إظهاره :

ـ إذن . . يجب ألاّ أسبب لك المزيد من المتاعب يا سيد بوكانن . . وأود الرحيل الآن .

ـ هذا غير ممكن . . حتى وإن كنت مستعداً لأن أدعك تذهبين ، فأنت لست في حالة تسمح لك بالسفر . لكن إن نفذت ما أطلبه منك ، وعدت إلى الفراش ، سأحضر لك الأقراص المهدئة للألم التي تركها لك الطبيب .

ـ ماذا تعني؟ لا يمكنك أن تبقيني هنا ضد إرادتي . . هذا . . هذا اختطاف .

وجف فمها .

أسبل رموشه قليلاً ، ليخفي التعبير الذي ارتسم في عينيه ، وسألها :

ـ حقاً؟ هل تحبين أن أطلب الشرطة المحلية لتستمع إلى شكواك؟

لكن ، وبالرغم من تهذيبه ، ارتجفت عضلة بشكل خطير عند زاوية فمه .

فأجابت بتحدٍ : «أجل!» .

هز رأسه ، وأشار بيده بشكل مبهم : «لو سمحت» .

وسار نحو الباب .

خطت خطوة مترددة خلفه ، وسألته : لكن . . هل ستفعل هذا حقاً؟

فقال جازماً : «بالطبع . . فالاختطاف تهمة خطيرة جداً . ويجب أن تدفعي بها بكل قوتك» .

قالت : «سأفعل» .

ثم تلاشى تحديها تحت نظرته التي لم تلن .

ـ لماذا أشعر «بلكن» أخرى قادمة؟ هل أشار عليك المنطق بأنك ستبدين كمغفلة؟

ـ ولماذا سيشير عليّ بهذا؟

ـ فكري بالأمر للحظة ، لقد أنقذتك من مأزق خطير جداً . . وأنا . . .

ـ كان بإمكاني أن أتدبر أمري!

لم يزعج نفسه بالتعليق على كلامها السخيف ، وتابع يقول وكأنها لم تتكلم :

ـ وجئت بك إلى هنا ، وغسلت جروحك .

واحمر وجهها ، حين ارتسمت على شفتيه ابتسامة استفزازية خفيفة .

كرر : «غسلت جروحك قبل أن أضعك في فراشك وأطلب طبيباً ، وقد نصح هذا الأخير بالراحة لعدة أيام» .

صمت قليلاً ، ثم أضاف :

ـ لا يبدو لي الأمر وكأنه اختطاف . . لكن . .

وهز كتفيه ، قبل أن يقول :

ـ . . إذا كنت تظنين أن الشرطة ستهتم بالأمر ، سأستدعيها في الحال .

وانتظر ردها . . بغطرسة مستبدة ، وسخرية مغيظة .

لم تكن تحتاج لمن يشرح لها الوضع ، فسوف يجعل من نفسه بطلاً ، وستلعب هي دور الحمقاء الناكرة للجميل .

تمتمت : «انس أمر الشرطة . . لكنني لا أريد أن أستريح . . أريد فقط أن أرحل» .

ـ إذا كنت تظنين أن استضافتك هنا مصدر سعادة لي يا آنسة ناش ، فأنا مضطر لأن أقول لك بأنك مخطئة . . فأنا أقدس خلوتي وسترحلين في أقرب فرصة ممكنة ، وسنناقش الشروط بعد الإفطار .

استدار ليخرج وهو يقول : «أنصحك بالبيض المسلوق» .

ـ بيض مسلوق؟ ظننت أن طعام السجين التقليدي هو الخبز والماء .

اسوّدت عيناه.. أهو لون البحر الأخضر؟ ربما. لكن، أي بحر؟ لعله المحيط المتجمد الشمالي في منتصف الشتاء..

ـ إذا كان هذا ما تريدينه.

وصفق الباب وراءه بحدة.

ـ ماذا!

لكنها كانت تكلم نفسها.. واعتراها ذعر مفاجىء، فارتجفت وركضت عبر الغرفة. تجاهلت ألم يديها، وكادت تخلع الباب.. لكنه لم يكن مقفلاً.. وقفت هناك للحظة، في وسط الباب المفتوح، تتساءل عما إذا كان بإمكانها أن تفرّ عبر السلم المكسو بالسجاد السميك. ونظرت إلى نفسها.. إنه ليس غافلاً إلى هذا الحد. وليس بحاجة إلى قفل ليبقيها حيث هي.. إلى أين يمكنها أن تصل في ثيابها هذه، ودون حذاء؟ ودون مال؟ وتراجعت إلى الغرفة، وأقفلت الباب ورائها.

فكري يا صوفي.. أنت تحتاجين إلى خطة..

وردّت على نفسها ساخرة: «انسي أمر الخطة.. ما تحتاجينه أولاً، هو بعض الثياب..».

ووقعت عيناها على الخزانة، ولأول مرة منذ استيقظت، ارتسم على فمها ما يشبه الابتسامة.

أمسكت بالمقبض النحاسي لأحد الأدراج، وسحبته، وكتمت صيحة ألم انطلقت رغماً عنها، لفرط ما أوجعتها ذراعها التي شدها به شاي بوكانن ليخرجها من ورطتها. وتذكرت الكدمة الضخمة التي تزين ظهرها.. يا له من متوحش! لم يكن مضطراً لأن يجرها هكذا.. كان بإمكانها أن تتدبر أمرها بنفسها.

نظرت إلى خزانة الأدراج بوجل.. لكن كي تخرج من هنا، يجب أن تجد ما ترتديه. وأمسكت بالمقبضين معاً، فانفتح الدرج بسهولة، ليكشف عن عدد من القمصان المكوية جيداً.. وهذه المرة ابتسمت، بسعادة لم تستطع مقاومتها.

اختارت قميصاً قطنياً أزرق اللون. ورفعت كتفها المصابة على مهل لتدسها في الكم.. كان القميص كبيراً جداً، وصل إلى ركبتيها تقريباً.. لكن هذا الأمر ناسبها، فإذا ما وضعت له حزاماً، تستطيع ارتداءه كفستان.. وحاولت تزريره، لكن أصابعها آلمتها، وأبطأت عملها، فتخلت عن إقفال الأزرار بعد انتهائها من اثنين منها.

بحثت في بقية الأدراج، وتجاهلت رباطات العنق، بل أخذت جورباً أبيض سميكاً يمكنه أن يقي قدميها من الحجارة.. ماذا عن الثياب الداخلية؟ نظرت بخيبة أمل إلى ذوق شاي بوكانن.. ما تحتاج إليه هو بنطلون من الجينز وحزام جلدي.. وفيما أمسكت مقبض الدرج السفلي، تناهى إليها صوته يتحدث إلى شخص ما على السلم.

ركضت إلى السرير، واندست تحت الأغطية.. فتح الباب، ودخل حاملاً صينية.. تردد قليلاً وهو ينظر إلى القميص الذي كان يستر جسمها، ثم وضع الصينية على الطاولة قرب السرير.

وسأل: «هل تشعرين بتحسن؟».

ردّت بإشراق، متجاهلة أطرافها التي تؤلمها وإحساسها بالتعب:

ـ أنا بخير بما يكفي كي أغادر.

ـ أعتقد أن هذا القرار يعود للطبيب.

ـ الطبيب؟

نظر إليها مفكراً، بعد أن فضحت عيناها أملها: «سيأتي لزيارتك فيما بعد.. إنه صديق لي يا صوفي.. لذا لا تزعجي نفسك بإسبال رموشك الطويلة.. فلن يتأثر بها».

ـ أنا لم أسبل رمشاً في حياتي!

جلس على حافة السرير، وقال: «لا؟.. لا بد أنني أخطأت في فهم الدلائل. لقد تكوّن لدي انطباع بأنك أسبلتها مراراً صباح أمس حين طلبت مني أن تصوريني».

ـ هذا غير صحيح!

لم تكن تتوقع تجاوب جسمها الفوري مع رجولته الخطيرة. وابتلعت ريقها.. لقد لاحظ كل هذا، ألهذا السبب آلمها رفضه؟ ظن أنها عرضت نفسها كمكافأة على تعاونه معها، ومع ذلك رفض؟

جلس إلى جانبها، وأعطاها فنجان الشاي، ولف أصابعها المرتجفة حوله، وثبّتها هناك بأصابعه.. لا زالت النار فيها.. تلك النار المستعرة التي تسري في شرايينها حين يلمسها. وأحست بعينيها تغرورقان فجأة بالدموع.. هذا غير عادل.

قال: «هيا يا صوفي.. اشربي هذا.. سيجعلك تشعرين بتحسن».

ردت ساخرة: «أشك في ذلك!».

إنها لا تحتاج إلى فنجان شاي.. واشتد احمرار وجهها، وسرت الحرارة في جسمها كله وهي تعترف في سرها أن جلّ ما تحتاج إليه هو شاي بوكانن، أن تكون بين ذراعيه.. أن.. أوه.. يا للسماء!

وأحنت وجهها تدفنه في الفنجان. إنها بالكاد تعرف هذا الرجل.. وما تعرفه عنه لا يعجبها.. إنها رغبة، رغبة مشوشة، إنما بسيطة ومخيفة. ما يجب أن تفعله، هو أن تستحم بماء بارد لا أن تستلقي في الفراش، ويداه ملتفتان حول يديها، ومخيلتها جامحة تعرض لها الصور.

شربت الشاي.. فأخذ الفنجان منها، وسألها: «هل يمكنك أن تأكلي؟».

حاولت أن تبقي الحديث عدوانياً فسألت: «الخبز؟».

لكنها فجأة أحست بضعف حين ردّ عليها بحدة: «الخبز والماء يمكن أن ينتظرا.. جربي التوست».

هزت رأسها، ثم تمنت لو لم تفعل.

- حسن جداً.. خذي هذه الأقراص ونامي.

نظرت بارتياب إلى الأقراص البيضاء، وقالت: «ما هذه؟».

- لقد تركها لك بول.

- صديقك الطبيب؟

- من أجل السماء! أتظنين أنني أحاول تخديرك؟ إنه طبيب محترم متزوج ولديه عدد من الأولاد، وهذه مجرد أقراص لألم الرأس. وهو يؤلمك.. كما أرجو؟

إنها تعاني من ألم في الرأس بالطبع، وأخذت الأقراص، ابتلعتها مع كوب من الماء أمسكه لها وكأنها عاجزة.. وحين أقفل الباب خلفه، تخلت عن الجهود التي بذلتها لتواجهه بتحدٍ، واندست بين الأغطية تحاول التفكير في الورطة التي أوقعتها فيها «الخدمة الصغيرة» التي طلبها منها نيغل.

لم تستسغ المهمة كثيراً منذ البدء.. وتركتها حتى اليوم الأخير.. ربما على أمل ألا يكون هناك، فلن يستطيع نيغل أن يلومها على غيابه.

لكنها، في النهاية، قادت سيارتها على طول الطريق الساحلي إلى أن رأت البرج الذي بدا كما وصفه لها نيغل تماماً.. ضخماً مربعاً، أحد تلك الأبراج العديدة التي بنيت على الجزيرة لمراقبة القراصنة.

وعن قرب، بدا لها البرج مخيفاً أكثر.. بالرغم من منظر الزهور الملطف.. إذ يحرس مدخله بابان عريضان من الخشب المضلع. لكنها رسمت على شفتيها ابتسامة، ورفعت مقرعة الباب التقليدية، التي أخذت شكل دلفين.

مرت لحظات، لم تلاحظ خلالها أي حركة. واستجمعت شجاعتها لتقرع الباب مجدداً حين تحرك الباب وانفتح.. الصورة التي ملأت المدخل خطفت أنفاس صوفي، فكل خلية من جسمها، التفتت نحوه وتحركت اهتماماً.

كانت قد رأت صوراً للرجل.. وشاهدته على شاشة التلفزيون. لكن، ما من شيء حضّرها لهذا الوجود الطاغي.. لهذه الرجولة الاخاذة التي جذبتها إليه وكأنه مغناطيس.

- نعم؟

لهجته الباترة أيقظتها من أوهامها.. وراقب تراجعها خطوة إلى الوراء

بعينين ثاقبتين بدتا بعد أن تفحصتاها بشكل خاطف، وكأنهما تعرفان عنها أكثر مما تعرف هي عن نفسها.

استجمعت كل ما لديها من إرادة لتحافظ على ابتسامتها.. ومدت يدها مصافحة، وقالت: «سيد بوكانن؟ السيد شاي بوكانن؟».

وتجاهل يدها.. وبارتباك، دفعت إلى الوراء خصلة شعر غطت خدها قبل أن تنزل يدها، وتضيف: «اسمي صوفي ناش».

ـ صوفي ناش؟

فكّر في الاسم، وكأنه يحاول أن يتذكره.

ـ أجل.. أنا..

قاطعها دون اعتذار: «لعل ذاكرتي تخونني يا آنسة ناش.. لكنني لا أذكر أي موعد مع شخص يحمل هذا الاسم».

ـ حسن جداً.. لا.. ليس لدي موعد.

هز كتفيه، وقال: «في هذه الحالة..».

وتراجع ليقفل الباب لكنها مدت يدها تلقائياً تمسك بذراعه، وتقول:

ـ لكن.. يا سيد بوكانن.. أنا..

كانت بشرته دافئة، وسمراء جداً مقارنة مع أصابعها البيضاء. سحبت يدها بحدة، وكأنها تلقت صدمة كهربائية.. وحين رفعت نظرها إليه، سخرت منها عيناه.. لكنه لم يغلق الباب. فأكملت: «أنا هنا بسبب..».

ـ أعرف لما أنت هنا يا آنسة ناش. أم أنك تخدعين نفسك وتظنين أنك أول.. معجبة.. تجدني؟ لكن يجب أن أعترف لك بأنك أجمل من بعضهن..

وطافت عيناه ببطء على جسمها، وأضاف: «.. من قمة رأسك الأشقر إلى أظافر أصابع قدميك الزهرية اللون.. مع أن أكثرهن كن لبقات بما يكفي ليحملن نسخة من كتبي لأوقعها...».

رفع حاجباً متسائلاً، ونظر إلى حقيبة يدها. لكن، لم يكن معها أي

كتاب تقدمه، ولعنت بصمت هذه الغلطة الغبية.. وأكمل: «هذا كل ما أستطيع أن أفعله».

خشيت أن يكون لون خديها قد أصبح وردياً كأظافر قدميها.. وكانت تشعر بسخونتهما، وتمنت لو تستطيع أن تغطيهما بيديها.. لكنها ستكون حركة غبية، وستجذب انتباهه إليهما.

وكان نيغل قد قال لها: «ارتدي ثوباً جميلاً.. وتبرجي فهو لا يستطيع مقاومة الجمال، كل ما عليك فعله هو استخدام تلك الابتسامة الفاتنة، وستدخلين» حسن جداً.. كان نيغل مخطئاً.. لم تستخدم الكثير من الزينة، فالطقس حار جداً.. لكن الكحل الرمادي القاتم على جفنيها أبرز عينيها الرماديتين الكبيرتين.. وبدت رموشها كثيفة ولماعة. وكانت قد اعتنت بتحديد شفتيها ووضع أحمر الشفاه عليهما.

ـ أنا لم أحضر إلى هنا لأحصل على توقيعك يا سيد بوكانن.. أنا مصورة.. وأنا آسفة إذا كان الوقت غير مناسب.. كان من الممكن أن أتصل بك هاتفياً لآخذ موعد.. لكن رقم هاتفك غير مسجل...

قال: «هذا لأنني لا أملك هاتفاً.. ويفترض أن يكون هذا دلالة قوية على أنني لا أرغب أن يزعجني.. زوار عاديون».

لا بد أن شيئاً ما قد فاتها ولم تفهمه.. ماذا يعتقد أنها تريد؟ ثم، أدركت ذلك.. يظنها إحدى عشاق المشاهير! هذا فظيع.. إنه لأمر محرج.. وودت أن تستدير وتفر هاربة لكنها لم تفعل.

ـ سيد بوكانن.. أنت مخطىء..

قاطعها بخشونة: «أنت المخطئة يا آنسة ناش».

احتجت بحرارة وقد صممت على أن تخلصه من الفكرة الخاطئة التي كوّنها: «لا.. أرجوك أصغي إلي.. أنا ببساطة أريد التقاط صورة لك..».

لم ينبس ببنت شفة.. لم يتحرك.. ولم تهتز عضلة واحدة فيه.. مما أثار اضطرابها.. فمررت لسانها على شفتيها تبللهما، بينما راحت تبحث

في حقيبتها عن بطاقة، أي عذر لتبعد نظرها عن العينين الثاقبتين. وعثرت أصابعها المرتجفة أخيراً على ما كانت تبحث عنه، فأخذ بطاقة التعريف من يدها، دون أن يبعد عينيه عن وجهها.

قالت، وهي تشجعه على النظر إلى البطاقة: «أترى؟ أنا محترفة.. مصورة محترفة».

ولو اعتقدت أن هذا سيزيل سوء التفاهم ويحسن الأمور، لأخطأت، فهو لم يزعج نفسه بالنظر إلى البطاقة.. بل مزقها نصفين وأعادها لها، قائلاً: «وداعاً.. يا آنسة ناش».

واقشعر بدنها، وبلغ بها الاستياء مبلغاً، فزاد من قتامة لون عينيها الرمادي.. لكنها لم تكن مستعدة للاستسلام بعد.

قالت بسرعة: «صديق لي، يكتب مقالة عنك.. عن عملك. وأنا آمل في أن أقنعك بأن التقط لك صورة بسيطة، ولن آخذ من وقتك كثيراً. عشر دقائق، وأقل.. ولا حاجة لأن تبدل ثيابك.. تبدو رائعاً هكذا».

بل أكثر من رائع.. إنه يمثل صورة تدعوها كي تلتقطها.. قد يكون قميصه الأخضر قديماً، باهتاً، لكنه يتناسب تماماً مع لون بشرته الداكن، وكمّاه المنتزعان منه، يكشفان عن عضلات قوية.

ومع ذلك، لم يتحرك، وبدا أنه ينتظر المزيد.. فابتلعت بريقها، وأضافت: «أنا مستعدة، بالطبع، لأن أدفع.. أيّ أجر.. تراه مناسباً».

اسودّت عيناه قليلاً.. وسأل: «أي شيء؟».

فوافقت بتهور: «أي شيء».

لن تخسر هذه الفرصة من أجل حفنة جنيهات.. ثم، أدركت مدى سذاجتها، فأضافت: «ضمن المعقول.. طبعاً».

ـ وإن لم أكن.. متعقلاً؟

وفهمت فجأة أن هذا النقاش لا يدور، عن المال. فقد لاحظ ردة فعلها نحوه.. وأساء فهمها.. ظنها مستعدة لدفع أي ثمن لتحصل على ما تريده. ثم أدركت أن الأمر أسوأ بكثير.. فهو يعتقد أنها «ترغب» في

ذلك.

صدمتها هذه الفكرة، فبقيت مسمّرة في مكانها، وعجزت عن التحرك ببساطة والابتعاد. ليس لأنها تود إقناعه بالتقاط صورة له، بل لأن ساقيها خذلتاها، على ما يبدو.. وافترّ فمه عن ابتسامة تسلي قاسية، وهو يتقدم نحوها، مجبراً إياها على رفع رأسها نحوه، وعلى التراجع.. ولم يكن أمام صوفي أي خيار.. وفيما رفعت رأسها نحوه، رفع يده، ولمس عنقها بطرف إصبعه. وحاجباه يرتفعان قليلاً مع إحساسها بالقشعريرة تسري في جسمها.

تمتم: «يا لها من لهفة ترضي الغرور».

وسمرتها عيناه الآسرتان، وتابع إصبعه طريقه ببطء معذب. وتسارعت أنفاسها لتصبح حادة مؤلمة مع تعاظم انكماش بشرتها.

قال: «محاولة جيدة آنسة ناش.. لكن، كان على صديقك أن يحذّرك من أنني لا أتكلم مع المراسلين أو المصورين.. مهما كان الإغواء قوياً».

قالت بصوت متحشرج: «كيف تجرؤ؟».

سألها: «أجرؤ؟».

وسحب يده عن فتحة قميصها.. فاستطاعت أن تتنفس من جديد.

وأكمل قائلاً: «للحفاظ على خصوصياتي.. أجرؤ على أشياء كثيرة.. وسأعطيك إنذاراً عادلاً يا آنسة ناش، فلو عثرت عليك مرة أخرى قرب منزلي وآلة التصوير معك، ستكتشفين أن الزنزانة لا زالت تعمل هنا.. وستبقين فيها إلى أن أقرر العكس».

وكادت صوفي أن تقفز مجدداً، وهي مستلقية في سريره، حين تذكرت صوت صفق الباب الأمامي الكبير. وعرفت أن عليها الفرار.. الابتعاد عن هذا الرجل الذي لا يطاق، وبأسرع ما يمكن.. وفاجأها التثاؤب.. وأصبح جفناها فجأة شديدي الثقل، فأطبقتهما.. نعم هذا مهم.. لكنها ستنام قليلاً.. أولاً.

* * *

٣ ـ سجينة حتى إشعار آخر

استيقظت صوفي، وتمطت، ثم نظرت إلى ثياب نومها غير المناسبة بعبوس خفيف. حاولت أن تستقيم في جلستها، فأجفلت وقد عاودها الألم، ولاحظت عينين سوداوين متسائلتين، تنظران إليها بفضول واضح. العينان السوداوان ذاتهما اللتان لمحتا وميض العدسة، إنهما عينا صبي يتراوح عمره ما بين الخمس والست سنوات. وكان يجلس على حافة السرير.

قالت: «مرحباً».

مال إلى الأمام قليلاً. وهو يكاد لا يخفي إثارته. وسألها: «كيف كان الأمر؟».

ـ عفواً؟

ـ فوق الصخور.

وأشار بذراعه في اتجاه غير محدد.

ـ كان المكان حاراً ومغبراً. ومخيفاً جداً.

ـ أنا لن أخاف.

بدا جلياً أنه يعلل خوفها بكونها امرأة. وأضاف بعد قليل: «ولسوف أتسلقها يوماً. إلى فوق».

جعلتها هذه الفكرة تصاب بالغثيان فجأة. فقالت تنصحه: «حسن جداً. لكن تأكد من أن تحمل معك حبلاً».

ـ لكنك لم تحملي معك حبلاً.

ـ كنت غبية. واضطر والدك إلى إنقاذي. ما اسمك؟

ـ توم! ماذا تفعل هنا؟ ألم أقل لك أن تترك الآنسة ناش وشأنها؟

أسرع الصبي للنزول عن السرير كالمذنب، وقال: «لم أوقظها يا أبي. لقد استيقظت وحدها. أليس كذلك؟».

والتفت إلى صوفي متوسلاً، فقالت مؤكدة كلامه: «وحدي. لم يزعجني أبداً. حقاً».

لكن شاي بوكانن لا يقتنع بسهولة، فقال:

ـ اذهب واشرب الشاي. تيريسا تنتظرك.

ابتسم لها توم ابتسامة مترددة، وتمتم: «آسف».

ـ لا تكن آسفاً يا توم. وتمتع بالشاي.

راقبت الباب يقفل خلفه بشيء من الندم. وها هي مضطرة لمواجهة والده المتحجر الوجه، الذي مال نحوها وأمسك ذراعها، وسألها: «ماذا كنت تسألينه؟».

بدا الغضب الصرف جلياً في صوته، ووجهه، والطريقة التي شدت فيها أصابعه على لحمها الطري.

ـ لم أسأله شيئاً. فبالرغم من رأيك الوضيع بي، لم أعتد على استجواب الأطفال.

ارتسم عدم التصديق على خطوط وجهه، وقال:

ـ هل تقصدين أنك لن تقدمي على مثل هذه الفعلة؟

نظرت إليه بحدة، وردّت: «أنا لا أقصد. بل أقول لك الحقيقة».

وتصادمت عيناهما للحظات.

فاشتدت قبضة أصابعه، وسألها: «عمَّ كنتما تتكلمان إذن؟».

ـ كان يسألني عن الصخور.

ـ الصخور؟

شحب وجهه بشكل ظاهر، وأكمل: «وماذا سألك؟».

ـ سألني كيف كان الأمر هناك. وقلت له إنه مخيف، وإنني كنت

حمقاء.

وصمتت.. ثم أكملت ظناً منها أنه يجب أن يعرف: «قال إنه سيتسلق الصخور بنفسه يوماً».

فقال عبر شفتيه المشدودتين: «اللعنة عليك!».

ـ بصراحة يا سيد بوكانن.. لا أظن أن للأمر علاقة بي.. لكن، أعتقد أن بعض الدروس البسيطة في تسلق الصخور قد تشكل تدبيراً احتياطياً حكيماً.. دعه يتذوق الألم، فضلاً عن الإثارة.

مرر يده في شعره الأسود الذي انسدل على جبينه.. وارتجفت عضلة صغيرة عند طرف فمه، وقال:

ـ لا.. لن يقترب من تلك الصخرة اللعينة.

نظر إليها، وأضاف بحدة: «يبدو لي أنك تحسنت».

ـ أجل.

ودفعها شيطان صغير إلى أن تضيف بلطف:

ـ شكراً لك على سؤالك.. تحسنت بما يكفي كي أغادر.

فقال محذراً:

ـ ستغادرين حين يناسبني ذلك يا آنسة ناش.. في هذه الأثناء، ستبقين حيث أنت إلى أن يعاينك بول بشكل شامل.. ولا تفعلي شيئاً أحمق أمامه.

شيء أحمق! مثل ماذا؟ ساعدني.. فأنا سجينة هنا؟ وابتسمت ابتسامة مخادعة حلوة، وقالت:

ـ وماذا أستطيع أن أقول؟ أنت بطل.. أنت قديس..

ـ كفى!

هزّت كتفيها واتكأت على الفراش.. مال فوقها ليمسك ذقنها، ويجبرها على النظر إلى عينيه، وهدّدها:

ـ أحسني التصرف يا صوفي ناش.. وإلا فإني أحذرك.. لن تري أفلامك الثمينة مرة أخرى.. هل هذا واضح؟

ودّت أن تقول له بأن يأخذ أفلامها ويذهب بها إلى الجحيم؟ لكنه لا يحتفظ بأفلامها وحسب، بل بآلة التصوير أيضاً.. ثم هناك جيني.. وهي لم تفقد الأمل بعد في أن تنتزع أفلامها وتهرب.. فقالت مترددة: «واضح جداً».

تفرس في وجهها للحظات، وكأنه لا يصدق مثل هذا الإذعان السريع.. وأجبرت نفسها على مواجهة نظرته المثيرة للاضطراب متجاهلة تسارع نبضات قلبها المفاجىء، وإحساسها بالضعف وهي تواجه جاذبية هذا الرجل التي تكاد تكون وحشية.

أخيراً تركها. لكن آثار أصابعه بقيت مطبوعة على وجهها.. أحست بأن أنفاسها مقطوعة، ونبضاتها تتسارع بجنون، كما عجزت عن ضبط مشاعرها.. على عكس المحدق بها، الذي راح ينظر إليها دون أي أثر لعاطفة تحرك قسماته المتعجرفة.

قال بلهجة سطحية وكأنما ليؤكد رأيها:

ـ حين ينتهي بول من معاينتك، انزلي لتناول الغداء.

فأمسكت بالقميص الذي ترتديه، وسألته: «وهل لي ببعض الثياب؟».

ـ ليس في الوقت الحاضر. ليس قبل أن أتخذ قراراً بشأنك.

وقُرع الباب فقاطع لهيب الانزعاج في عينيها، الذي هدد بالاندلاع والقضاء على محاولاتها الجاهدة كي تكون متمدنة مع هذا الرجل. وقف شاي عن طرف السرير ليترك الطبيب يدخل.

قال وهو يخرج: «لا تقس ضغط دمها بول.. فلدي إحساس بأنه سيفجّر آلتك».

لكن الطبيب لم يأخذ التحذير على محمل الجد. فحص عينيها، وصدرها، وأخذ ضغط دمها، فأعلن أن كل شيء على ما يرام:

ـ ارتاحي لبضعة أيام يا آنسة ناش. وستكونين بخير.

ووقف، ثم أضاف: «سأتفقدك غداً.. لكنني آمل أن أجدك في

الخارج. تجلسين في الظل.. وفي المستقبل، ابتعدي عن الصخور.. خاصة هذه الصخرة».

ـ لماذا؟

نظر الدكتور بول ماندوكا إلى مريضته مفكراً، وأجاب: «بعض الأسئلة يُفضل ألا تطرح يا آنسة ناش، سأراك غداً. أمسية سعيدة».

والتقط حقيبته، وخرج.

اغتسلت، وسرّحت شعرها بمشطه رغم الألم الذي تملكها. ثم، ودون أي تردد، اختارت قميصاً أبيض نظيفاً. ثم فتحت الدرج السفلي، لكنها لم تجد أي بنطلون جينز، بل مجرد كنزات وسراويل قصيرة.

حملت أحد السراويل وقاسته على جسمها.. ليس سيئاً.. ارتدته.. لكن ما أن تركته حتى سقط عند كاحليها. نظرت إليه بعزم، فلن يهزمها بنطلون قصير.. جل ما يحتاجه، هو شيء ما يثبّته.. ربطة عنق.. وفتحت الدرج الذي يحتوي على الجوارب وربطات العنق، وراحت تدخل واحدة منها في فتحات الحزام وربطتها جيداً حول خصرها.. ثم اختارت واحدة أخرى، ربطة عنق جميلة من الحرير، لونها أحمر قاتم، وربطتها فوق القميص.. وهي تبتسم إعجاباً بصورتها التي عكستها مرآة الحمام، ثم قررت ألا ترتدي جوارب.

فتحت باب غرفة النوم، وأجفلت حين اصطدمت بصاحب البرج المثير للاضطراب. لكن، لم تفتها تلك الومضة في عينيه الحادتين وهو يتأمل محاولتها للتأنق.. كما لم يفتها عمق الخطوط على خديه.

ـ لقد تأخرت.. فظننت أن خطأ ما قد وقع.

فسألته بنعومة: «خطأ؟ وماذا يمكن أن يحصل يا سيد بوكانن؟ كنت ببساطة أفكر في ما سأرتديه».

دار حولها، معلقاً: «إنه خليط مثير للاهتمام.. في الواقع، إنه مثير جداً».

والتقت عيناه بنظرتها الغاضبة، وهو يضيف: «أتصور أن جاذبيتك

الخاصة، وليست مهارتك في استعمال آلة التصوير، هي التي جعلتك تنالين هذه المهمة بالذات».

جاذبيتها الخاصة؟ بدت الفكرة غريبة بحيث تركتها، للمرة الأولى، عاجزة عن الرد.. لقد عملت بنصيحة نيغل بالطبع وحاولت أن تكون.. مغرية.. حين أرادت إقناع شاي بوكانن بأن يدعها تلتقط صورة له. لكن نجاحها في لفت انتباهه جعلها تضطرب، خاصة وأنها تحت رحمته الآن.

أسندت صوفي ظهرها، وتنهدت بعد أن تناولت حساء الخضار المكثف بالمعكرونة، واللوبياء واللحم، وقالت:

ـ الحساء رائع يا تيريسا.

ابتسمت المرأة المتوسطة العمر التي تدير شؤون منزل شاي بوكانن، قبل أن تستدير نحوه، وتنطلق في حديث سريع بلغتها المحلية.

ـ عمّ كان كل هذا الحديث؟

ـ تيريسا قديمة الطراز.. ولا تظن أنه من المناسب أن ترتدي سيدة شابة ثياب رجل.. خاصة رجل لا تعرفه.

ـ أنا من رأيها.. لكن، بما أن البديل هو ثياب نومك أو الشرشف..

للحظة، تسمرت عيناه عند فتحة قميصها، وجاهدت لتضبط أعصابها، وتمنع نفسها من إقفال الفتحة بيدها.. لكنه عاد ورفع عينيه إلى عينيها.. بعد ما بدا لها وكأنه دهر..

ـ فكرة الشرشف ليست سيئة.

فردت بحدة: «لأنك لن ترتديه.. وأعتقد أن تريسا صدمت بما يكفي ليوم واحد».

التوت شفتاه قليلاً، فأحست بالسخط لأنه يتسلى على حساب أعصابها، فقالت بحدة:

ـ من الأفضل أن تعطيني ثيابي يا سيد بوكانن، لأنني لن أغادر المكان دون أفلامي وآلة التصوير.

لكنه لم يأت على ذكر الأفلام، بل قال:

ـ لقد حضّرت لك تيريسا غرفة الضيوف. . وستجدين ملابسك هناك.
ووقف ثم أضاف: «ستتناول القهوة في غرفة الجلوس».
وأمسك بذراعها ليساعدها على الوقوف. فقالت: «يؤسفني أنها أزعجت نفسها، لأنني مضطرة لإعادة توضيبها».
ورفض أن يرد، رغم جهدها لإثارة غضبه. وتجاهلت حرارة أصابعه على مرفقها.
وسألت: «وآلة التصوير؟ هل هي هناك أيضاً؟».
ثم كتمت أنفاسها مجدداً، تنتظر انفجار سخطه. لكنه نظر إليها ببساطة، وأجاب:
ـ ليست هناك، لكنني لم أرمها في البحر.
فتح أحد درفتي الباب وأدخلها إلى غرفة تشابه في الحجم والشكل غرفة نومه. . أو لعلها أكبر بقليل. وكان المساء قد أسدل ستاره. أشار إلى مقعد، قائلاً:
ـ اجلسي. . تصرفي وكأنك في بيتك.
في بيتك؟ يا لجرأته. . ستجلس حين تود ذلك، أما الآن فلديها أشياء أهم تشغل بالها. سألته: «وماذا عن الأفلام؟».
قال وهو يرفع الإبريق الفضي: «سوداء أم بيضاء؟».
ـ لا هذا ولا ذاك إنها ملونة.
لان قليلاً حين رأى اليأس في عينيها، وأجاب:
ـ لا زالت موجودة. . حتى الآن. اجلسي يا صوفي.
بقيت واقفة، وتابعت تسأله: «وماذا ستفعل بها؟».
وضع إبريق القهوة من يده، وتوجّه نحوها وكأنه ينوي على شيء. وقبل أن تدرك ما سيفعله، أو أن تحتجّ، حملها بين ذراعيه وتحرك نحو مقعد جلدي كبير ثم رماها فيه.
جرت الأمور بسرعة، وانتهت هذه اللحظة قبل أن تتمكن من تسجيل دفء ذراعيه العاريتين، أو خفقان قلبه.

غريزياً. . رفعت ركبتيها حتى ذقنها وتكورت في وضعية الدفاع عن النفس. لم تعرف يوماً رجلاً قادر على إثارة اضطرابها وهذه المشاعر كلها بلمسة أو نظرة ليس إلا.
كرر سؤاله وكأن شيئاً لم يحصل: «سوداء أم بيضاء؟».
تمتمت: «بيضاء. . أرجوك».
وكان صوتها مطيعاً خاضعاً. . فرمقها بنظرة حادة وهو يناولها فنجانها.
ارتشفت صوفي قهوتها. . وهي تحاول التخلص من إحساسها بسوء المعاملة، وبعدم واقعية موقفها كله. . إنها امرأة ناضجة، تمارس عملها بجد. وها هي تتصرف كفتاة صغيرة طيبة.
كان يجلس قبالتها مسترخياً مستريحاً. وفي يده فنجان القهوة. وراح يراقبها من تحت رموشه الكثيفة، فرفرفت بعينيها.
سألته، بصوت أجش لشدة توترها: «حسن جداً؟ لا تتلاعب بأعصابي يا سيد بوكانن. . ماذا ستفعل بالأفلام؟».
ـ هذا عائد لك يا آنسة ناش.
نظرت إليه مستغربة، لكنه بدا وكأنه ينتظر ردها. . فهزت كتفيها، وقالت: «هذا سهل، أعطني إياها وسأذهب في سبيلي».
نظر إليها بثبات، وقال: «أنا واثق من أنك لا تصدقين أن الأمر بهذه السهولة. . لديك خياران فقط».
تابع: «الخيار الأول هو أن أتلف الأفلام كلها. . ولا أعتقد أن أحداً سيلومني على ذلك».
ـ أنا سألومك يا سيد بوكانن. . في الواقع سأكون تعيسة جداً.
ـ سعادتك لا تهمني. . ما أهتم به الآن هو حياتي الخاصة.
سألته: «لماذا؟».
ـ ثم لا؟ أم لعلك تستمتعين بفكرة آلة تصوير ذات عدسات بعيدة المدى تصّوب نحوك من مكان خفي؟ ربما وأنت تستحمين؟ أو تأخذين

حمام شمس في حديقتك الخاصة؟ تنشر الصور لاحقاً في الصحف؟

قالت محتجة: «أنا لم أفعل ذلك يوماً».

ثم احمرّ لونها مع ارتفاع حاجبه استنكاراً لعنفها، وتابعت متحدية:

ـ كما لن ينشرها أحد. فأنا لست. . .

صمتت. وقد أدركت فجأة إلى أين سيقودها هذا الكلام، فسألها:

ـ أنت لست مشهورة؟ وهل يهم هذا؟

ردّت، دون أن تستطيع منع نفسها من الارتباك: «ربما لا، لكنه مهم».

ـ أجل. . مهم، لذا قررت أن أبتعد عن الشهرة، وأنوي أن أبقى هكذا.

ودّت لو تسأله عن السبب مجدداً. . لكنها في هذه المرة كبتت سؤالها. وأكمل:

ـ و. . بحق السماء. . نادني شاي. . فاسم السيد بوكانن يجعلني أشعر وكأنني في التسعين من عمري.

ـ يمكن أن تكون في مثل هذه السن. . فأنت على أي حال، متقاعد. وتخليت عن حياتك السابقة. . من أجل بعض الخصوصية.

ـ ومن قال إنني تقاعدت؟

حمل الصوت البارد تحذيراً من أنها تخطو فوق ثلج رقيق. . لكنها اختارت أن تتجاهل التحذير، وقالت:

ـ لم تكتب شيئاً منذ سنوات. واختبأت في هذا المكان. . وببساطة، خطوت خارج العالم، وابتعدت عن الحياة.

وتحداه صوتها أن ينكر، فرد بنعومة، وعيناه تلمعان:

ـ وأنت متلهفة لتذكيري بما فقدته؟

للحظة تملكها الغضب، وواجهته بعناد، بينما تسارعت دقات قلبها بشكل ينذر بالخطر. . ثم وجدت نفسها تنظر إلى يديها المصابتين، وأدركت أن أنفاسها أسرع من أن تستقر.

أكمل قائلاً: «لا؟ إذن فلنلتزم بالموضوع الذي كنا نناقشه».

قالت: «أعتقد أنك قلت إن أمامي خيارين. . فما هو الثاني؟».

لم يرد، بل وقف، وأحضر آلة التصوير من زاوية معتمة في آخر الغرفة. حين وضعها دون اكتراث على الطاولة أمامها، مدت يدها لتحملها، لتحميها منه. لكن أصابعه القوية التفت حول معصمها لتمنع هذه الحركة المتلهفة.

ثم انحنى حين أصبحت عيناه في مستوى عينيها. . كان يحتجزها، يسيطر عليها، بعجرفة رجل يعرف أنه لا يقاوم ولا يقهر.

ـ كما قلت. . ستتلف الأفلام كلها يا صوفي الآن. .

تجاهل شهقة الاحتجاج الحادة التي بدرت عنها، وفتح الحقيبة بيده الأخرى، ليخرج منها فيلماً، وهو يقول:

ـ الأمر بسيط.

ابيّض إصبعه وهو يشد على غطاء الفيلم، وأجفلت صوفي مع وقوع الفيلم، وانفتاحه على حجرها. . لقد أتلف كلياً. وأطلقت آهة قصيرة. . كل هذا العمل ذهب هباء. والتقط فيلماً آخر، دون أن يكترث بكربها. . وقال:

ـ ذلك الفيلم هو الذي أخذته من جيبك، أما هذا فقد يكون أي شيء.

واشتدت يده فوق غطاء الفيلم الثاني، فصاحت: «لا!».

وطارت يدها لتنقذ الفيلم الثمين، لكن قبضته اشتدت حوله، وسأل:

ـ هل أنت واثقة؟

ابتلعت بريقها وأجابت: «لقد أتلفت الفيلم الذي صورته عنك. . فلا داعي لتدمير ما تبقى».

نظر إليها بشيء من الشفقة، وقال: «لقد أتلفت فيلماً واحداً مما التقطته لي».

ـ لقد صوّرت واحداً فقط.

هز رأسه ببطء، وقال: «صوفي. . صوفي. . أستطيع أن أفهم سعيك

للتأثير علي وإقناعي بصدقك. . ولا بد أن مبلغاً كبيراً من المال ينتظرك إذا ما نجوت بأفلامك. لكنني أخشى أن تكون دقتك في تدوين أعمالك أكبر من اللزوم. . ».

أعاد الفيلم إلى الحقيبة، وترك معصمها. . ثم أخرج دفتراً صغيراً، معلقاً:

ـ هناك سبعة وخمسون فيلماً مسجلاً في هذا الدفتر الأحمر الصغير. مرّ عليك أسبوع عمل حافل.

وافقت: «طبعاً. . أنا أدون الملاحظات دائماً فيما أصوّر. . وماذا في ذلك؟».

رد ساخراً: «ماذا؟ وجدت تسعة وخمسين فيلماً في حقيبتك يا صوفي. . إضافة إلى ذاك الذي أتلفته. . ويبدو أن هناك اثنين إضافيين».

ـ أوه!

ترافقت آهتها مع تنهيدة عميقة.

تابع وقد سرّه اهتمامها: «لعلك نسيت أن تسجليها بكل بساطة؟».

انتظر لتؤكد له الأمر، لكنها لم تفعل، لأنها أدركت أنه لن يصدّقها.

ـ لا. . أنا لم أنسَ.

ـ لا. . بل لم يكن لديك الوقت الكافي لتسجلي الأفلام الثلاثة الأخيرة. . أليس كذلك يا صوفي؟

رمى دفتر الملاحظات على الطاولة ووقف قائلاً:

ـ كنت مشغولة جداً في محاولة الانتحار، وعلى عجلة من أمرك لتفرّي بما اكتسبته غصباً.

ـ أول خيار كان إتلافها. . فما هو الثاني؟

نظر إلى حقيبة الأفلام، ورد: «يمكننا أن نظهّرها».

ـ نظهّرها؟

كررت كلامه بذهول. . لكن شعلة أمل ضئيلة أضاءت في عينيها وهي تقول:

ـ وتحتفظ بالصور التي التقطتها لك؟ هذا كرم أخلاق كبير منك يا سيد. . شاي.

وابتسمت بما أملت أن تحمل معنى الامتنان.

فقال بابتسامة تسخر من ابتسامتها: «أجل. . في مثل هذا الظرف أعتقد أنه كرم أخلاق مني».

ـ بالطبع أنت لا تعرف أن الأفلام يجب أن ترسل إلى شركة «كوداك» في باريس. . وأن هذا الأمر سيستغرق بضعة أيام.

ـ وأنت بالطبع ستبقين هنا إلى أن تعود.

اتسعت عيناها. لم تكن تتوقع هذا، لكنها هزت كتفيها، وكأن الأمر لا يهم. فما أن يرسل الأفلام حتى تجد وسيلة للهرب. . لكن الموافقة السريعة لن تفيدها.

ـ لا داعي لهذا. . سأعطيك عنواني، بإمكانك أن ترسل لي الصور التي لا تخصك.

ضاقت عيناه، وقال: «أنت تثقين بي كثيراً».

ـ ألا يجب أن أثق بك؟ أنت لن تحتفظ بها. . أليس كذلك؟

ـ لن تعرفي ذلك أبداً. . يا صوفي. . لأنك ستبقين هنا. وتحت الرقابة المشددة حتى تعود الصور.

ـ كسجينة عندك؟

اسودت عيناه «يمكنني أن أختار إتلافها كلها الآن».

وامتدت يده إلى الحقيبة، فهبت واقفة، ومدت يدها لتحمي الحقيبة، قائلة: «لا، أنت. . من الأفضل أن تحجزني في زنزانتك».

وارتسمت على شفتيه ابتسامة تعبّر عن رضى النفس.

ـ انسي أمر الزنزانة يا صوفي. . لدي شيء مسل أكثر.

انتزعت يدها وكأنه يحرقها، وجمحت مخيلتها بعيداً. . . لا. . إنه لا يقصد. . . ؟

ـ لا أجيد الغناء. . ولا الرقص. .

ـ لا؟ أنا لا أفتش عن فنانة. كيف تتدبرين أمورك في المطبخ؟

ـ في المطبخ؟

ـ أجل.. المطبخ. لقد أخذت تيريسا عطلة لبضعة أيام.. وأظن أن الحل الأنسب هو أن تحلّي مكانها لأسبوع.

سألته، مذعورة: «وحدي معك؟!».

بدا وكأنه يجد ردها مسلياً، فأجاب: «ليس وحدنا تماماً.. هناك توم».

ـ توم؟ لا أعتقد أنه سيكون مرافقاً مناسباً..

ـ أتريدين مرافقاً..؟ فتاة بالتأكيد عصرية، تخاطر بحياتها لتحصل على سبق صحفي؟ هيا يا آنسة ناش.. لست خائفة بالتأكيد؟ لقد خرجت من هذا العالم، ألا تذكرين؟ اعتزلت الحياة.. فأي نوع من الأخطار قد أمثل؟.

لم ترغب في التفكير في الأخطار التي يمثلها.

وسألت: «كم عمرك بالضبط.. لمجرد الحشرية؟».

ـ حشرية فقط؟ ثلاثون.. وشيء ما.

أربعة؟ خمسة؟ لا أكثر.. وأخذ قلبها يخفق بسرعة سخيفة.. وسألت:

ـ بهذا القدر؟

تظاهرت بأنها تتطلع حولها، ثم رفعت عينين رماديتين وقورتين لتلتقي عمق المحيط في عينيه:

ـ إذن.. أين تحتفظ بالعكاز؟

أمسك كتفيها بقسوة حذرتها من أن المقاومة لا طائل منها.

ـ صوفي ناش.. أنت غبية جداً، شابة وقحة، وتحتاجين إلى درس يعلمك احترام من هو أكبر منك سناً.. يجب أن أضعك فوق ركبتي وأصفعك على قفاك.. والآن على الفور!

أصرت على تحديه: «وهل تظن نفسك قادراً على ذلك؟».

قال: «لقد اخترت أن تلعبي بالنار يا آنسة ناش. لكنك لن تحصلي على ما يكفي من الكدمات بيوم واحد».

وشدها إليه بقوة قائلاً: «اعتبري هذا، دفعة على الحساب».

* * *

www.elromancia.com

٤ ـ يعاقبها . . . حتى العناق!

عملت احتجاجات صوفي الغريزية لصالحه، وأدركت متأخرة أنه كان عليها أن تطبق فمها. . ولم يتأثر أبداً بمحاولاتها لتحرير نفسها، بل أمسك بخصرها وجذبها إلى دفء جسمه، وأجبرها على الاعتراف بسيطرته عليها.

توقفت عن المقاومة، إذ أدركت أنها غير مجدية. . . وبقيت جامدة تماماً، رافضة التجاوب معه بعناد. ثم أحست برعشة تسري في جسمها وهو يرفض الانصياع لعقلها. . فما من أحد يمكنه ألا يتجاوب مع رجل مثله.

قال إنها تحتاج إلى درس، فتوقعت شيئاً قاسياً يترك كدمات على جسمها. . وتسهل مقاومته. لكنه كان أمكر بكثير، فلم يستخدم أسلوب رجل الكهف، بل ضمها إليه وعانقها بنعومة أشعلت النار في عروقها. . حتى أصبحت هي من تطالبه بالمزيد. . وابتعد عنها، وعيناه تصعب قراءتهما على ضوء المصباح.

قال. . يسألها: «والآن يا آنسة ناش. . هل تسمحين بإعادة تلك الملاحظة عن العكاز؟».

شهقت. . وابتعدت عنه. . ففي حين كانت ضائعة تائهة، تحلق فوق السحاب، انكب هو على إثبات وجهة نظره، وعلى إذلالها. ويا له من درس! درس لن تنساه بسهولة. لكنها ستحافظ على هدوئها، وتضع كرامتها جانباً، وتتذكر القول القديم: «لا تجن غضباً. . بل حافظ على

أعصابك. . وبطريقة ما، ستجعله يدفع الثمن!».

توعدته بالعقاب بصمت، ورفعت ذقنها، ثم رسمت ابتسامة على فمها، واستدارت لتواجهه.

ـ أسحب ما قلته يا سيد بوكانن، ودون تحفظ. . فبالرغم من أنك في الثلاثين. . وشيء ما. . إلا أنك لا زلت بعيداً جداً عن مرحلة الخرف، والآن هل نوضب الأفلام؟ ثم، أرجو منك أن تدلني إلى جناح الخدم؟

نظر إليها بثبات. . وبشيء من التقدير المتذمر، لقدرتها على التمثيل والتظاهر. . ماذا كان يتوقع منها. . نوبة هستيريا؟ من الأفضل لها ألا يرى ما يكمن خلف الواجهة الباردة.

قال: «سأهتم بالأفلام في الصباح، وأعتقد أنك نلت ما يكفيك لليوم».

أكثر مما يكفيها، لقد نالت من شاي بوكانن ما يكفيها مدى الحياة. . وذكرته:

ـ لقد بقيت في السرير طوال اليوم. . ولست متعبة.

هناك أمر هام عليها أن تفعله. وبعفوية، أخذت لفافة من الملصقات الصغيرة من حقيبتها، وراحت تضع بأصابع مرتجفة، واحدة على كل فيلم.

ـ ماذا تفعلين؟

رفعت نظرها بما أملت أن يكون عدم اكتراث، وأجابت:

ـ أضع علامات تعريف على الأفلام، مع رقم حسابي.

وأجبرت نفسها على الابتسام. . ابتسامة صغيرة وأضافت:

ـ لن أقبل بأن تدفع كلفة التظهير.

ضاقت عيناه قليلاً وهو ينظر إلى الحقيبة، وقال:

ـ اتركيها الآن. . إن لم تكوني متعبة، فمن الأفضل أن تخرجي إلى الشرفة لتتنشقي بعض الهواء النقي.

ترددت قليلاً قبل أن ترمي الفيلم في الحقيبة. . فقد يرتاب بأمرها، إن

احتجت ورفضت.

ـ إنها فكرة . . جيدة.

فتح الأبواب الزجاجية العالية، فدخل الهواء الدافىء الرطب، العابق برائحة البحر ليلاقيهما . . أخذت نفساً عميقاً ومتعت ناظريها بالمنظر الممتد أمامها. وظهرت أمامها جزيرة «غورزو» حيث سجنت الساحرة الفاتنة «كاليبسو» البطل الأسطوري أوديسيوس لسبع سنوات.

تمتمت: «يا إلهي . . إنها منطقة جميلة».

ـ ظننت أنها لا تعجبك.

ـ لا تعجبني؟ ولماذا؟ إنها ملاذ . . مكان تلجأ إليه حين تريد الهروب من العالم . .

واستدارت إليه مكملة: «ليست مكاناً للعيش، إلا إذا كنت من الكسالى».

ـ وهل هذا رأيك بي؟

قالت بتعاطف ظاهر: «إنني أرى الإغراء، لكنك مثل أوديسيوس المسكين . . لن تستطيع الهرب . . فمن السهل جداً أن يبقى الإنسان دون حركة».

استدارت إليه، وقالت:

ـ لماذا توقفت عن الكتابة شاي؟ مما تختبىء؟

احمرت عيناه تحذيراً، وأجابها:

ـ لا بد أن رئيس تحريرك أعطاك فكرة عن الموضوع؟

رئيس التحرير؟ وأرادت أن تضحك للفكرة، أو أن تبكي . . فنيغل لم يكن سوى صحفي مأجور يعمل حراً . لكنها لن تقول له هذا، بل ردت:

ـ لما لا تعطيني وجهة نظرك؟

تجاهل سؤالها وسألها: «هل ترغبين في شرب شيء ما؟ عصير فواكه مثلاً؟».

ردّت بسرعة: شكراً لك.

ـ اجلسي هناك، وسأحضره لك.

أشار نحو أرجوحة كتلك التي تظهر في أفلام السينما الأميركية الرومانسية القديمة.

انحنى شاي وقدم لها كأساً جميلاً من الكريستال، فيه عصير فاكهة مثلج . .

أخذت الكأس منه . . وأجفلت حين لمست أصابعها أصابعه . . ومد يده ولمست ذراعه كتفيها، وراح يؤرجح المقعد ببطء شديد:

سألها: «لحساب من تعملين . . يا صوفي؟».

ـ ماذا؟

كان سؤاله بعيداً عن مجرى أفكارها المرتبكة.

ـ إنه سؤال بسيط جداً.

ـ أجل . . بالطبع بسيط.

وأخذت نفساً عميقاً، ثم أضافت: «لمكاتب عطلة على جزيرة. ألتقط صور كتيبات الدعاية لها، خلال الشتاء . . ويبدو أنهم راضون جداً عن عملي، فطلبوا مني أن أهتم بصقلية ومالطا هذه السنة».

ـ هذا مثير جداً للاهتمام . . والآن هلاّ أجبتني عن سؤالي.

ـ لكن . .

حذّرها قائلاً: «صوفي!».

ـ أنا لا أعمل لحساب أحد.

ـ أكنت تقومين بهذا العمل لحسابك فقط؟

ماذا يمكنها أن تجيبه؟ نظرت إليه . . هل يمكنه أن يفهم سبب اندفاعها اليائس هذا؟ وارتجفت قليلاً . . بالطبع لا . .

ـ صديق لي طلب مني أن ألتقط صورة لك أثناء وجودي في مالطا . . أخبرتك ذلك . . إنه يكتب مقالة عنك، مجرد . . خدمة بسيطة . . ولن يدفع لي لقاءها.

ـ وإلى أي مدى ستصلين . . من أجل خدمة؟

www.elromancia.com

ـ إلى أي مدى؟

امتدت أصابعه، وراح يتلمس مؤخرة عنقها، فتصلبت وحاولت الابتعاد. . لكنه كان أسرع منها، فأمسك بعنقها من الأمام ولفّ راحة يده عليه، ثم رفع رأسها إلى الخلف وسمّر عينيه على ناظريها.

سألها: «حتى النهاية؟».

ولامس شفتيها بإبهامه، فدفعته عنها، وصرخت: «لا!».

ضحك بنعومة، ولم يحاول الإمساك بها، بل قال: «وهل تتوقعين مني أن أصدق هذا؟».

انفجرت صائحة: «لا يهمني ما إذا صدقتني أم لا».

وضعت الكأس على طاولة صغيرة، وحاولت الوقوف. . لكن تأرجح المقعد أفقدها توازنها، فوقعت إلى الخلف فوقه. أمسكها من خصرها، وشدها نحوه وعيناه السوداوان تبحثان في وجهها.

ـ لا بد أنه صديق مميز. . حتى تخاطري لهذا الحد. .

احتجت قائلة: «أنا لم. . .».

ثم هزت كتفيها حين لاحظت نظرة عينيه المعذبة، وقالت:

ـ أنا لم أقصد أن أفعل هذا.

رفع حاجبه غير مصدق. . فاحمرت بشدة حين أدركت أن إنكارها يتناسب مع الروايتين. لكن، ربما عليها أن تستغل صداقتها مع نيغل. .

ـ أجل. . إذا أحببت أن تعرف. . نيغل مميز جداً، والآن هل تسمح بإنزالي؟

وحاولت التملص، لكنه أصرّ قائلاً: «هل هو حبيبك؟».

ـ كيف تجرؤ على طرح هذا السؤال؟

اشتدت قبضته على خصرها محذرة، وأجاب: «على السجين أن يتوقع بعض الاستجواب. أخبريني عنه».

لكنها لم تشأ التحدث عن نيغل. . فمدت يديها نحوه، وقالت:

ـ إذا أردت معرفة أسراري، عليك أن تستخدم التعذيب. .

ولكن بدل أن يغضب أخذ إحدى يديها، وأدارها، قائلاً: «لا أعتقد هذا. . فيداك عانتا بما فيه الكفاية».

رفعها إلى شفتيه وقبل باطن كفها. بعث رعشة شوق خطيرة في جسمها، فانتزعت يدها وكأن أفعى لسعتها. ابتسم. . وفاجأها بقوله: «لا أعتقد أن عليّ اعتماد التعذيب لأعرف أسرارك».

ـ لا أفهم ما تعنيه.

وتأرجح المقعد فردها إلى صدره.

تمتم: «بالطبع تفهمين يا صوفي. . وإلا لما تلهفت هكذا للخلاص».

ـ ألا يمكنك إيقاف هذا الشيء؟

ـ متى أردت. . لكنني سعيد جداً الآن.

تحرك قليلاً، بحيث أصبح رأسها متكئاً على كتفه، ولم تعد تستطيع المقاومة. فأبقت نفسها متصلبة قدر استطاعتها.

تأرجح المقعد، ودفء الجو، وخفقان قلبه المنتظم تحت خدها، كان أشبه بمزيج سحري. .

بماذا تفكر بحق السماء؟ ما الذي تفعله مستلقية بين ذراعي العدو؟

تنحنحت قائلة: «أشعر بالنعاس. . من الأفضل أن أخلد للنوم».

وحاولت النهوض، ولكنه شدها إلى صدره وقال:

ـ قبل أن تذهبي يا صوفي. . أريد أن أطرح عليك سؤالاً أخيراً.

ـ نعم؟

ـ هلاّ قلت لي ماذا حل بالأفلام التي التقطها في صقلية؟

فاجأها سؤاله هذا فحملقت به متسائلة: «صقلية؟».

ـ لقد توليت مهمة التقاط صور في صقلية لمصلحة «شركة عطلة في الجزر» أليس هذا ما قلته؟

ـ وهل قلت هذا؟

وهل سيصدقها إن ادعت أنها الآن في طريقها إلى هناك؟ لاح لها

بصيص أمل صغير للخلاص. . إن استطاعت أن تقنعه أنهم يتوقعون وصولها إلى هناك غداً. . وإن لم تصل، سيقلقون عليها ويفتشون عنها. . والتقت عيناها بعينيه القاسيتين البراقتين، فمات الأمل في قلبها، بالطبع لا. . فلقد شاهد بطاقة سفرها، وعرف أنها كانت هناك.

ـ حسناً؟

ـ أرسلتها إلى باريس قبل أن أغادر «باليريمو».

ـ حقاً؟. . وماذا يحل بها لاحقاً؟

أحست بالانزعاج إذ أدركت أنه يعرف الجواب مسبقاً، ولكنه يحاول ملاعبتها فحسب.

ـ يعيدونها بالطبع.

ـ طبعاً. . لكن ليس إلى صقلية.

ضحكت ضحكة صغيرة: «كلا».

كرر: «حسناً. . كلا».

وقلد ضحكتها الصغيرة بسخرية. . تخلو من المرح. وما لبث أن تبدلت نبرة صوته المداعبة، فصدمتها لهجته القاسية حين قال:

ـ تعاد إلى القاعدة مباشرة، حسب تعليماتك المسبقة.

نهض فجأة وأوقفها على الأرض وقال: «تزعجني يا صوفي لصوق العلامات الصغيرة. . أعتقد من الأفضل أن أصطحبك إلى غرفتك فوراً. . قبل أن أغيّر رأيي حول الزنزانة».

ردت بغضب: «بصراحة يا سيد بوكانن. . أنا أفضل الزنزانة. . يمكنك على الأقل حينها أن تنسى محاولة التشبه بالإنسان المتمدن!».

رد بصوت أجش:

ـ أنت لا تعرفين معنى الكلمة. . في ظروف مماثلة، كان تصرفي يثير الإعجاب!

ـ إنك حقاً أكثر الرجال فظاظة، وبغضاً وإثارة للسخط.

ـ حقاً؟ حسناً، جلبت سوء حظ لنفسك. . وأعتقد أنك بالغت

بالاتكال على حظك بما يكفي لهذا اليوم.

ـ أوه. . ؟ وهل فعلت حقاً؟ وماذا عنك أنت؟ ألست خائفاً أن أخبر الجميع ما فعلته معي، بعد رحيلي؟

وأضافت قائلة من دون أن تتيح له الفرصة لمقاطعتها:

ـ وأنا لا أعني الشرطة. . بل الصحف.

فرد بخشونة: «لن تخرجي من المواجهة مغطاة بالورود».

فأجابته ساخرة: «حقاً؟ حسناً. . إن كنت حقاً كما تحسبني يا شاي بوكانن. . هل كنت لأهتم حقاً؟».

ولوحت بيديها تشير إلى عنوان بالخط العريض:

ـ مؤلف لأفضل القصص المباعة، يأسرني. .

وصمتت قليلاً، ثم أضافت قائلة:

ـ «كنت أسيرة شاي بوكانن». . أو، ما رأيك. .

رفعت يديها مرة أخرى، لكنه هذه المرة أمسك بمعصميها بقبضته بإحكام وأمرها قائلاً: «كفى!».

فقالت له تنصحه:

ـ ستزداد شهرتك. . وتخسر خلوتك الثمينة. .

وتلاشى صوتها أمام نظرات عينيه الغاضبتين.

قال بنبرة باردة: «إنها غلطة. . فادحة يا صوفي. . وأخشى أنني مضطر أن أستبقيك هنا مدة أطول مما كنت أتوقع».

ـ ماذا تعني؟ لن تستطيع. .

ـ ألن أستطيع؟ ومن سيمنعني؟

ابتلعت ريقها بتوتر، وقد سمرتها نظراته في مكانها. . وترك معصميها، ليمسك خصلة من شعرها الطويل ويلفها حول قبضته قائلاً:

ـ قد أسجنك في أعلى البرج فتجدين نفسك مرغمة مثل «رابونزيل» أن ترخي شعرك آملة أن يستجيب بحار لإغوائك ويتسلقه لينقذك.

ـ أنت مجنون!

اشتدت قبضته على شعرها وقال: «حقاً؟».

وشدها من شعرها وقادها باتجاه البرج. لم يكن بوسعها سوى أن تلحق به ككلب مطيع وهو يشد شعرها بقوة.

سألته بتحدٍ بالرغم من أنها كانت تدرك في قرارة نفسها أنها تمادت كثيراً. وكثيراً جداً:

ـ ما الذي ستفعله بي؟

ـ لقد اتفقنا يا صوفي ناش. ولكنك أردت أن تخلي بالاتفاق.

هزها سائلاً:

ـ أليس كذلك؟

عضت شفتها كي لا تصرخ من الألم، واغرورقت عيناها بالدموع. إلا أنه ما لبث أن ترك شعرها. وأمسك بذراعها قبل أن تتسنى لها الفرصة للفرار. وكرر سؤاله:

ـ أليس كذلك؟

نظرت إليه، بعينين واسعتين، براقتين، وهي تأبى أن تطلق العنان لدموعها.

ـ ولم لا؟ لا يحق لك. لا يحق لك أن تدمر عملي. لو كنت مكاني لفعلت مثلي!

قال بوحشية:

ـ لا. ما كنت لأفعل. وما كنت لألتقط تلك الصور اللعينة أساساً.

لم تعد تقوى على حبس دموعها لكنها كانت غاضبة جداً. ومسحت خديها بكميها، وقالت:

ـ إنك تعيش متكاسلاً هنا بعد أن جنيت ما يكفي من مال لتتقاعد في عقدك الثالث.

رد بحدة: «إن كنت تصدقين هذا يا صوفي ناش، فأنت مجنونة».

وتطاير الشرر من عينيها. وأكملت:

ـ ما الذي تعرفه عن كسب العيش؟ لا أكسب رزقي من التقاط الصور

في الجزر السياحية فحسب وتعرف هذا! مهمتي التالية في ليڤربول لتصوير «كاتالوج» للمكانس الكهربائية وألعاب الكومبيوتر وللألبسة النسائية الداخلية.

ولم تتح لها فرصة لتكمل كلامها. إذ وضع يده على شفتيها لإسكاتها. لم تكن يده مداعبة. بل أشبه بدمغة سلطانية تطالبها بالطاعة، والاستسلام لإرادته. لا فائدة من المقاومة. لا فائدة من القتال. كانت تعي هذا، حتى وقبضتاها تضربان كتفيه.

لاحظت بعد حين، رقة يديه على خصرها وقد أخذ يداعب ظهرها بأصابعه الطويلة. مثيراً فيها أحاسيس جميلة. توقفت قبضتيها عن الضرب، واندست حول كتفيه وتمسكتا بقوة بعنقه. ومضى وقت طويل قبل أن يرفع رأسه لينظر إليها. وهمست:

ـ لماذا فعلت هذا؟

للحظات لم يرد. بل تابع النظر إليها، ثم استدار مبتعداً، وهو يمرر أصابعه في شعره الأسود ليبعده عن جبينه.

ـ كنت في حالة هستيرية، وكان عليّ أن أسكتك بطريقة ما. وكان الخيار بين العناق أو الصفع.

ـ أعتقد أن عليّ أن أكون ممتنة.

ـ ممتنة؟

رفعت كتفيها قليلاً:

ـ لأنك اخترت الأقل عنفاً، فآلامي تكفيني. ولو أنني..

ـ وهل آلمتك؟

أجابت: «لم يكن عناقك أقل سوءاً من الصفعة».

رد بحدة: «لا أظنك استمتعت بصفعة مماثلة من قبل».

كبتت الرد الغاضب الذي اندفع إلى لسانها، إنه يقول الحقيقة.

من اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناها على شاي بوكانن شعرت بتأثير غريب. كان يجعلها تقول وتفعل أشياء بعيدة عن رباطة الجأش

الهادئة التي طالما تفاخرت بها. . أشياء لا تمت لطبيعتها بصلة، وقد تثير دهشة كل من يعرفها.

لاحظ شاي هذا. . وظنها تعبث بوقاحة لتحصل على ما تريد منه. . كيف له أن يعرف أنها لا تجيد العبث. وأن ردة فعله هذه غير مرحب بها منها بقدر ما هي غير مرحب بها منه. لكنها أصبحت واثقة الآن أن عليها الابتعاد من هنا قبل أن يفقد أحدهما أعصابه. . إذ في كلتي الحالتين، وحدها ستعاني من النتائج.

إن أصر على تدمير الأفلام، فلن تستطيع منعه. .

قالت: «افعل ما شئت بالأفلام. . أريد مغادرة هذا المكان في الحال. . لدي أعمال كثيرة».

بدا الغضب على وجهه وهو يقول:

ـ لن تذهبي إلى أي مكان يا آنسة ناش. . اعتقدت أنني كنت واضحاً في كلامي.

تحركت نحوه: «ألم تفهم؟ تستطيع الاحتفاظ بالأفلام اللعينة. . أريد فقط أن أغادر. . والآن!».

كانت القسوة تتجلى في تعابير وجهه:

ـ لقد حذرتك من مغبة التسلل إلى أملاكي.

فأدركت للحال أنه لم يكن يمزح.

ـ لكن. . لماذا؟

ـ هذا ليس من شأنك. . لكن الأمر لم يعد يتعلق ببضعة صور. . وإلى أن تنتهي. . مفاوضات محددة، أخشى أن لا أستطيع المخاطرة بعناوينك الصغيرة الشريرة.

ـ لم أكن أعني ما أقوله. . يجب أن أعود إلى دياري. . الأمر. .

التوى فمه في ابتسامة متوحشة: «أهي مسألة حياة أو موت؟».

أثار صوته الساحر أعصابها وسرت قشعريرة في شرايينها. . وقاومت الرغبة في أن تصفعه.

وأكمل كلامه: «هل هذا ما كنت ستقولينه؟».

هزت كتفيها بارتباك: «أرجوك، دعني أذهب يا شاي. .».

ـ لا تفعلي هذا!

كان ينظر إليها مذهولاً، وظنت للحظة أنها اخترقت دفاعه. ثم رفع يده إلى خدها المتوهج، ليمسحه بإصبعه الخشن. . وأخذت عيناه الثقيلتا الجفنين ترمقانها بنظرة تخلو من العاطفة.

ـ أوه. . أنا مضطر لمعانقتك إلى أن تتوسلي إليّ لتبقي.

تراجعت إلى الخلف متعثرة، لكن يده كانت هناك، على خصرها، تثبتها وتمسك بها.

قالت بحدة: «إنك شديد الثقة بجاذبيتك».

ورفضت الاعتراف بالنيران التي كانت تضطرم في جسدها. . هل هذا الصوت الأجش هو فعلاً صوتها؟

ـ وهل هذا صحيح؟

لمعت عيناها إذ لاحظت نظرته المفتونة إليها. ثم مرر أصابعه على على وجهها، الرضى للاستجابة المرتجفة. . ورفع عينيه ينظر إليها قائلاً:

ـ هل أنت واثقة تماماً من قوة إرادتك؟

لا!. . صرخت في قرارة نفسها. . وقد رفض جسمها الإذعان لأوامر عقلها بالابتعاد عن يده التي تسللت إلى ظهرها.

ما الذي يحدث لها بحق السماء؟ كانت الأحاسيس المجنونة تفقدها رباطة جأشها. . اقشعر لها بدنها، فاحمرت خجلاً وأخذت نبضاتها تتسارع بشوق لا يحتمل.

تنحنحت:

ـ أنا. . أوه. . أنا أظن. . أنني. . ربما. .

ـ أعتقد أن من الأفضل أن تذهبي إلى فراشك في الحال.

كادت تتهاوى عليه، وقد تنفست الصعداء لأنه لم يخضعها للتجربة. . ثم أحست بالذعر من أن يكون قد أساء فهم الإشارات التي كان

يرسلها جسدها . . وحاولت الخلاص من لمسته المخدرة .

ـ لا! . . الأمر . . أنا لا أعني . .

ـ حقاً؟ من المخجل أن جسمك لم يكن متجاوباً .

تراجع قليلاً: «سأريك غرفتك».

ثم أخذ حقيبة الكاميرا وقال:

ـ إن كنت تتساءلين، سأضع هذه الحقيبة مع بقية أغراضك، في مكان لا يسعك الوصول إليه. لذا، فلا داعي لمحاولة الهرب في منتصف الليل.

أحست فجأة بالإرهاق الشديد، ولزمها كل قوة متبقية لها لتستند إليه . . وتمتمت:

ـ لن أستطيع الهرب في الوقت الحاضر .

أيقظتها أشعة الشمس، من سباتها العميق. وفتحت صوفي جفنيها المتعبين، لتستقبل نور النهار، الذي كان يتدفق صافياً مشرقاً عبر النافذة المفتوحة، وتمطت، تحاول بتردد تحريك أطرافها المتألمة . . كان كتفها يؤلمها بشكل لا يحتمل.

نهضت من فراشها، وتقدمت نحو النافذة . . تقع غرفتها في الجهة المقابلة من البرج مقابل غرفة شاي، وتطل على مساحة شاسعة من الأرض وبعض المزارع الصغيرة.

ابتعدت عن النافذة على مضض . . لا وقت لديها لتضيعه . . كلما أسرعت في ارتداء ملابسها كلما استطاعت أن تغادر بسرعة أكثر، وتحاول أن تشرح لأصحاب الفنادق أسباب تأخرها في العمل.

دخلت إلى الحمام، ووقفت تحت رذاذ الماء المتدفق بحدة تشهق . . ثم غسلت شعرها، وهي تهدد نفسها للمرة الألف أن تقص شعرها الطويل الكث.

كانت تيريسا قد أفرغت حقيبتها، ووضعت أدوات الزينة على الطاولة . . لكن، لا وقت لديها لتضيعه في التبرج . . وارتدت بسرعة قميصاً نظيفاً، وسروالاً قصيراً كحلي اللون شبيه بلون السروال الذي

استعارته من شاي في الليلة السابقة .

انتعلت صندلاً خفيفاً، ووضعت الساعة التي رأتها قرب السرير عندما استيقظت. هل دسها هناك وهي نائمة؟ أبعدت هذه الفكرة عن ذهنها، لا يهم . . . لكن ارتجفت أصابعها قليلاً وهي تشد حزام الساعة حول يدها، لفكرة وقوفه فوق جسمها النائم دون دفاع.

كفى . . حذرت نفسها . . نظرت إلى المرآة، وأقفلت زراً آخر في ياقة القميص . . حتى لا يتهمها بأنها تحاول إغواءه. عليها أن تقنعه بأن يدعها ترحل . . فتحت باب الخزانة، وأخرجت كومة من الملابس ورمتها على السرير استعداداً لوضعها في الحقيبة . . لكنها لم تعثر على الحقيبة.

أخذت نفساً عميقاً، وفتحت باب غرفة النوم ونزلت إلى الطابق السفلي، مصممة أن تبحث الأمر معه . . لكن شاي لم يكن موجوداً . .

ألقت تيريسا التحية، واصطحبتها إلى المطبخ لتجلسها على الطاولة . . بدا واضحاً أنها تعبر عن فرحتها لأن الآنسة صوفي ستعتني بتوم وهي غائبة.

فتحت صوفي فمها لتحتج. لكن تيريسا انتزعت المريلة وهي تبتسم، ووضعت على رأسها قبعة سوداء ضخمة، وقالت مكررة:

ـ شكراً يا آنسة صوفي . .

سألت: أين السيد بوكانن؟

ـ لقد خرج . . إلى مرسى مراكبه .

مرسى المراكب؟ وفي مثل هذه الساعة؟ . . هل قرر الإبحار؟ صدمت صوفي لجرأة هذا الرجل. قلما يهمها مكانه، إنها فرصتها للهرب. لكن تيريسا أضافت:

ـ توم . . في الحديقة .

جذبت صوفي نحو الباب، كان توم في الحديقة الصغيرة، المحمية من هواء الربيع البارد الذي كان يهب من البحر المتوسط . . يلعب بمجرفة كبيرة صفراء، وينقل الرمل إلى شاحنة أمامه . . ولم يكن الصبي سجّاناً بمعنى الكلمة . . لكنه قيد فعّال.

ـ مرحباً توم.

رد بحياء: «مرحباً».

قالت تيريسا: «أنا ذاهبة الآن».

واستدارت لترحل.

* * *

٥ ـ لعبة بين يديه

نظرت صوفي إلى فطورها غاضبة.. لكنها تأثرت لأن شاي وثق بها بما يكفي ليترك توم في رعايتها. نظرت إلى الصبي الأسود الشعر عبر الباب المفتوح.. كيف يسعه التأكد من أنها لن تخرج وتتركه لوحده؟..

حمقاء! من تظن نفسها تخدع؟ ستبقى بالطبع.. فهو يحتفظ بكاميرتها كضمان على حسن تصرفها.. وكذلك جواز سفرها، وحتى حقيبتها، لن تذهب صوفي ناش إلى أي مكان إلى أن يكون شاي بوكانن راضياً ومستعداً.

فتحت باب البراد، تتفحص ما يحتويه ثم توقفت، ما الذي تفعله بحق السماء؟ ستجلب بعد قليل المكنسة الكهربائية.. وتمررها فوق سجادة غرفة الجلوس.. إنها تنصاع ككلب مدرب.. أغلقت باب البراد، واستدارت لتجد نفسها أمام عينين سوداوين..

سأل توم متردداً: «هل حان وقت الغداء يا آنسة ناش؟».

ـ ليس بعد يا توم.. ماذا تحب أن تأكل؟

اقترح بلهفة: «العسل؟».

هزت رأسها وسألته: «الخبز والعسل.. والحليب؟».

ـ أجل.. أرجوك.

وسارع ليجلس إلى كرسي ويسأل:

ـ هل تسبحين معي بعد الظهر؟

نظرت إلى وجه الصبي المفعم بالأمل.. لكنها أبت أن تقطع وعداً قد

لا تتمكن من الوفاء به. «قد لا أكون هنا».
ـ قال بابا إنك ستبقين إلى أن تعود تيريسا.
ـ حسناً ماذا تحب أن تتناول على الغداء يا توم؟
ـ العسل؟
ـ لا أظن ذلك.
ثم استقر الرأي على البيتزا.. وأخذها توم إلى الخارج ليريها الحديقة.
وجدهما الدكتور ماندوكا هناك، يجلسان في ظل شجرة خرنوب مزهرة عطرة الرائحة.
ـ تبدين أفضل حالاً اليوم يا آنسة ناش.. لا.. أرجوك لا تقفي.
ردت قائلة: «أشعر بتحسن».
ـ عظيم.. قابلت شاي في ڤاليتا هذا الصباح. وقال لي إنك أفضل حالاً. لقد تركك كمرافقة للطفل كما فهمت.
قال توم: «لست طفلاً.. سأبلغ السادسة من عمري قريباً».
ضحك الطبيب وقال: «قريباً جداً، يوم الأحد المقبل».
ـ وكيف عرفت؟
ـ لأنني كنت موجوداً ساعة ولادتك.. هل ستقيم حفلة؟
هز الصبي كتفيه بحيرة، فلانت عينا الطبيب وقال:
ـ سألفت نظر والدك إلى هذه المسألة، سيخيب أمل أولادي إذا لم تقم حفلة.
استدار توم إلى صوفي: «هل ستأتين إلى حفلتي يا صوفي؟».
ـ أنا.. لا أعرف إذا كنت سأبقى هنا حتى ذلك الوقت يا توم.
ـ لكن تيريسا ستغيب أسبوعاً كاملاً.
فاستدرك الطبيب الأمر وقال:
ـ اذهب الآن والعب بالشاحنة يا توم.. أريد أن أعاين الآنسة ناش.
قالت صوفي: «أنا بخير.. حقاً».

ـ هل لي أن أحكم بنفسي؟
لكن، بعد أن عاينها وافقها الرأي وقال: «لقد تعافيت كلياً».
ابتسم وأقفل حقيبته وأضاف:
ـ سرني أن تحلي محل تيريسا خلال غيابها. نادراً ما تحصل على فرصة للراحة، مع أنها لا تتذمر أبداً.. اصطحبيه ليلعب مع أولادي.. سأطلب من جاين أن تعد لكما شيئاً.
ووقف وقال لها:
ـ أتمنى لك عطلة سعيدة.. ولا مزيد من التسلق.. هه؟
وقالت واعدة: «لا.. سأبتعد عن الصخور من الآن وصاعداً».
بعد الغداء، صعد توم إلى غرفته ليأخذ قيلولة، لاحظت صوفي أن الأولاد هنا يخلدون باكراً إلى الفراش، كما أن الجميع ينام بعد الظهر.. وهذا يناسبها تماماً. إذ ستتاح لها الفرصة للبحث عن أغراضها.
بدأت التفتيش في الطابق الأعلى.. قالت تيريسا أن الحقيبة في الأعلى، لكن الجولة السريعة التي قامت بها في غرفة شاي كانت فاشلة.. كانت تقفل الباب حين رأت بطاقة صغيرة على الأرض. إنها بطاقة عمل، لا بد أنها وقعت سهواً من أحد الجيوب، فانحنت لتلتقطها.. كان عليها شعار شركة «كاسل ديفولمبت»، الذي سبق لها أن رأته في كافة أنحاء الجزيرة، في مواقع البناء ثم شعرت بحركة في غرفة توم فأصيبت بالذعر.
دست البطاقة في جيبها، وأسرعت إلى السلم، لكن حين نظرت إلى غرفة الصبي، كان قد تقلب في فراشه وعاد إلى النوم بسرعة..
صعدت السلالم المؤدية إلى الطابق الأعلى. وهي تتوقع أن ترى مساحة مماثلة للطابق الأول.. لكن السلم انتهى إلى باحة سلم أخرى صغيرة، مع ممر صغير مسدود بباب ثقيل. أمسكت مقبض الباب تحاول فتحه ولكن من دون جدوى.
ووقفت على أطراف أصابع قدميها وأخذت تتحسس الحافة الصغيرة فوق إطار الباب.. لا شيء.. رفست الباب خائبة. ونظرت إلى

ساعتها. . لن ينام توم لوقت أطول، وقد يعود شاي في أية لحظة، لذا عليها أن تسرع في البحث.

كانت المكتبة أفضل مخبأ للحقيبة والكاميرا. . لو أنها فقط تجد المفاتيح لاستطاعت أن ترمي ملابسها في مؤخرة السيارة من دون حاجة للحقيبة.

عيل صبرها، فشدت درج المنضدة، تتوقع أن تجده مقفلاً، ولكنه انفتح بسهولة ليكشف عن كومة أوراق مسطرة داخل غطاء بخط رجالي واضح. فتسارعت نبضات قلبها. أكدت لها بضعة أسطر، أنها عثرت على أول مؤلف لشاي بوكانن منذ ستة سنوات، أهذا هو سره الكبير؟ وبقيت أصابعها للحظات فوق الورق المصقول.

ثم انتزعت يدها عنها، وأقفلت الدرج بسرعة. . ثم أنتقلت إلى درج آخر.

وجدت فيه مفتاحاً. . هل هو للغرفة في الطابق العلوي؟ حاولتْ الإمساك به فلاح لها شيء آخر.

إنها صورة صغيرة في إطار. . صورة فتاة. . تلمع عيناها سعادة، كانت سمراء وجميلة وقد كتبت في زاوية الصورة «إلى الأبد. . ماريا» كانت صوفي تعتقد أن توم يشبه والده. ولكن، كان له عيني أمه السوداوين الجميلتين.

بدد صوت فتح قفل الباب أفكارها. دفعت بالصورة بإجفال المذنب إلى حيث وجدتها، وأقفلت الدرج، ثم قفزت واقفة وقلبها يخفق بشدة، تحاول إيجاد عذر مقنع. لكن، حين استدارت، لم تواجه عيني شاي بوكانن المتهمتين.

ـ حسناً حبيبتي. . إنه وضع حميم.

ودخل نيغل فيليبس الغرفة.

ـ نيغل؟ من أين جئت بحق السماء؟

ـ هذا ليس بالاستقبال الحار لصديق جاء من لندن ليطمئن عليك.

ـ كيف. . كيف دخلت؟

ـ لم يكن الباب الأمامي مقفلاً. . فأهل الريف يثقون ببعضهم البعض.

وتقدم إلى الطاولة ينظر إلى الكومبيوتر. مد يده إلى المفتاح، فأمسكتها:

ـ لا تلمسه! سيعرف إن أدرته. . عداد الوقت. .

ضحك: «وسيعلم أنك كنت تنقبين في أشيائه. كم أنت ذكية يا صوفي. . سنشكل فريق عمل مثالي، ماذا وجدت حتى الآن؟».

ـ عليك أن تذهب. . سيعود في أية لحظة.

ـ لا تخافي. . لم أقصد أن أنغص عليك حياتك يا حلوتي. لكن حين لم تظهري مع الصور، اعتقدت أنك ستخلين باتفاقنا.

تابع، وهو يحدق في الأدراج:

ـ لم أجدك في شقتك. . وحين اتصلت بالفندق قالوا إنك تركته قبل يومين. . فأردت أن أعرف ما حل بك.

ـ ضبطني ألتقط له الصور بالعدسة البعيدة، وهو يحتجزني هنا. . ويرفض أن يتركني أرحل يا نيغل.

رد نيغل بابتسامة العارف قائلاً:

ـ حقاً؟ لا أراك مقيدة. . لكن أمثاله لا يحتاجون للقيود.

ـ وماذا تعني بكلامك هذا؟

وتضرج خداها خجلاً.

ـ هيا يا حبيبتي. . لا داعي للخجل. . أنا مسرور منك حقاً.

وداعب خدها بخفة.

ـ لم أكن أعتقد أنك تتمتعين بهذه الموهبة.

تراجعت بحدة، مشمئزة من لمساته. «ماذا. . ماذا تعني؟».

ـ أظنك قادرة الآن على إعطائي أكثر من صورة، أليس كذلك؟

ـ أنا. . أنا لا أفهم.

ولكن، رسالته كانت في غاية الوضوح.

قال وهو ينظر إليها بخبث: «إن أردت العثور على شقيقتك».

ـ بحق السماء يا نيغل..

ـ أمهلك بضعة أيام.

ـ لكن.. أتتوقع مني البقاء هنا؟

قال بثقة تامة: «ستبقين، لأجل جيني».

ومرر يده على خدها في حركة جعلتها تنفر وترتد إلى الوراء.

ـ استرخي.. يا حبيبتي.. قد يعتقد أي كان..

وهز كتفيه:

ـ لا داعي للإحساس بالذنب إن كنت تستمتعين بوقتك. هذا لأجل شقيقتك.. صحيح؟ سأوقف السيارة ليلاً في أول الطريق.. لنقل يوم الأحد؟ سأرسل لك إشارة بالأنوار الأمامية للسيارة حوالى الساعة العاشرة.. تأكدي فقط من حصولك على كل التفاصيل المثيرة.. وستنالين مكافأة جيدة.

ـ لا أريد منك مكافأة أو مالاً.

هز كتفيه وقال: «هذا عائد لك.. لكن شقيقتك قد تسرّ به، آخر مرة رأيتها..».

هز رأسه: «يا لها من أماكن للنوم وتناول الطعام!».

طعنها الألم.. لقد كانت تخدع نفسها منذ أمد طويل:

ـ حسناً! فهمت الصورة.

لقد ولي زمن «الخدمات الصغيرة».. فهذا ابتزاز صريح..

ـ مرحباً.. ما اسمك؟

ـ توم.. من أنت؟

كادت تشهق بالبكاء ارتياحاً وهي تسمع صوت الصبي.

ـ أنا نيغل.. صديق صوفي.

ـ نيغل سيغادر في الحال يا توم.. لماذا لا تذهب وترتدي بذلة

السباحة؟

ولم يحتج توم لدعوة ثانية، واختفى بعد أن ابتسم لنيغل.

ـ من هذا الولد؟

ـ إنه ابن مديرة المنزل.

نظر إليها ملياً، وقد استرعى انتباهه اللون المتوهج الذي لطخ شحوب خديها.. لم تكن يوماً تحسن الكذب.

ـ إنها غائبة لبضعة أيام.

وتقدمت بسرعة نحو الباب الأمامي وقالت له:

ـ أتوقع وصول شاي في أية دقيقة فاذهب حالاً.

ـ حسناً سأذهب.

كانت ترتجف وهي تغلق الباب وتقفله وراءه، لم تكن قد أدركت قبل هذا الصباح كم أن هذا الرجل كريه، إنه يعرف مكان أختها، لكنه يريد ثمن معلوماته صورة لشاي بوكانن في مخبئه.. بدا لها الثمن في يأسها ضئيلاً جداً. لكنه لم يكن كذلك، وأحست كأن شيئاً قذراً قد لامسها، وارتجفت.

ـ أنا جاهز الآن يا صوفي.

بدا لها وكأن صوت توم قادم من بعيد، وشد يدها:

ـ صوفي؟

نظرت نحو المكتبة.. المفتاح، إنه مفتاح الحرية. لكن عليها أن تنتظر.

بعد مرور دقائق قليلة كانت صوفي تقف على حافة البركة.. على الرغم من أن المياه لم تكن دافئة في هذا الوقت من السنة.. إلا أنها ستغسل عنها لمسة نيغل فيليبس. وقفز توم إلى الماء دون تردد.. وكم أحبت أن تحذو حذوه، لكن كتفها لم تكن في حال يسمح لها بالقفز، واندست في الماء ببطء، وقد حبست أنفاسها مع وصول الماء إلى معدتها.

بدأت تسبح في البركة، بسرعة كبيرة.. حتى لا تشعر بالبرد.. وكانت قد بدأت همتها تهمد حين سمعت صوت قفزة إلى الماء

أجفلتها . . كانت تراقب توم عن كثب، فلم ترَ شاي بوكانن إلى أن أصبح إلى جانبها.

سأل بابتسامة تدل على أنه يعرف بالضبط ما تعانيه:

ـ هل تستمتعين بوقتك؟

ـ المياه . . منشطة.

ضحك، كاشفاً عن أسنان بيضاء وقال: «عليك أن تجربيها في الشتاء».

ـ لا . . شكراً . . بما أنك أتيت، سأخرج قبل أن تتجمد أطرافي.

ـ كلام سخيف! ليست المياه باردة إلى هذا الحد.

وأمسك بخصرها يشدها إلى الأسفل، وخرجت من تحت الماء ترفرف يديها وتشهق لتلتقط أنفاسها. «أيها . . ».

ولم تستطع أن تكمل النعت الذي قفز إلى شفتيها، لأنه عاد ليغوص بها مرة أخرى. خرجت هذه المرة شاهقة . . من دون أن تزعج نفسها بإطلاق الإهانات، إذ كانت تحتاج إلى أنفاسها لتستعيد قواها.

وهو يتهاوى إلى الخلف من جراء هجومها الشرس، التفت ذراعا شاي حول خصرها، وجذبها إلى الأسفل معه . . وكان على حق، فمع تشابكهما معاً، لم تعد تشعر بالبرد.

ابتسم وسأل، وهما يطفوان معاً: «هكذا أفضل؟».

أفضل بكثير . .

في تلك اللحظة قفز توم عليهما، فتركها شاي، مستديراً وهو يطارد الصبي عبر البركة مدعياً الغضب. ثم انقلب كلاهما على صوفي . . فصرخت، وهربت نحو حافة البركة . . إلا أن يد شاي قبضت على كاحلها. وجرّتها إلى الوراء . . تقلبت في الماء، مصممة أن تصده عنها، لكنه أمسك خصرها، ورفعها إلى فوق. وبالرغم من رفسها الشرس له، أصبحت عاجزة عن الحراك. ظهر برهة بريق غريب في أعماق عينيه فحبست أنفاسها.

قال بسخرية: «أنت حرة أن تذهبي يا سيدتي».

ثم أبعد يديه متأنياً: «في الوقت الحاضر».

أثارت كلماته سخطها . . وكأنما يؤكد لها قدرته على استبقائها قدر ما يشاء.

وقفت صوفي، وتراجعت إلى الوراء مبتعدة عنه . . ثم استدارت لتلتقط منشفة وضعتها على صخرة قريبة، وبدأت تجفف شعرها . .

جلست على الصخر . . تراقبهما . . وهما يسبحان جنباً إلى جنب. السمكة الصغيرة إلى جانب سمكة القرش.

ثم راحت تشغل نفسها بتجفيف أطراف شعرها وبعد ذلك قررت تركهما لتحضر كوباً من الحليب للصغير.

كانت تملأ الغلاية بالماء حين قرع جرس الباب فأجفلت . . هل بدل نيغل رأيه؟ هل عاد لأجلها؟ دق الجرس ثانية بقوة أكبر، فتحركت بسرعة لتفتح قبل أن يسمع شاي.

كان من الصعب القول من منهما الأكثر ذهولاً . . المرأة الأنيقة الواقفة عند عتبة الباب، بدت وكأنها خرجت لتوها من بين صفحات مجلة أزياء مصقولة.

قالت المرأة ببرود: «بوبي كورزون . . قولي لشاي إنني هنا».

ودخلت إلى المنزل من دون دعوة.

تصلبت صوفي لدى سماعها لهجة المرأة، التي كلمتها وكأنها خادمة . .

سألت: «هل يتوقع مجيئك يا آنسة كورزون؟».

لكن سؤالها لم يكن في محله، إذ تخطتها المرأة ووجهها مبتسم، وذراعاها ممدودتان: «شاي . حبيبي».

وكان «شاي حبيبي» قد ارتدى قميصاً قطنياً وسروالاً قصيراً فوق ثوب السباحة، مما جعل صوفي تدرك أنها شبه عارية.

أخذ شاي الزائرة بين ذراعيه وقبلها على خدها بحرارة:

- بوبي . . لماذا لم تعلميني بقدومك؟ كنت انتظرتك في المطار .

- ضع هاتفاً أولاً في منزلك .

ضحك : «لا أمل في ذلك، تعالي إلى الحديقة . . سنتناول الشاي . . جيئي بفنجان إضافي يا صوفي» .

عندما ذكر صوفي، استدارت بوبي، ورمقتها بنظرة غريبة، أشبه بالصفعة على الوجه .

- هل استبدلت تيريسا بأخرى أصغر سناً؟

للحظة، تطاير الشرر من عيني صوفي، لكن شاي تدخل قبل أن تتفوه بالحماقات .

- بوبي . . هذه الآنسة صوفي ناش . . مربية توم .

- ألا تظنه كبر في السن؟

- إنه تدبير مؤقت .

وأخذت صوفي نفساً عميقاً لهذه الكذبة .

* * *

وصلت صوفي في الوقت المناسب لتسمع كلامي بوبي :

- لو كنت تريد مربية يا حبيبي، كان عليك أن تعلمني، لأستخدم لك مربية مدربة .

قال شاي : «إنها مدربة يا بوبي» .

والتقت عيناه المهيتنان بعيني صوفي . . كانت قد استحمت، وارتدت ملابسها . إلا أن شعرها المبلل كان يجعلها أشبه بمربية أطفال إنكليزية . .

وافقت بوبي على كلامه، وسألت بعد أن رمقت صوفي بنظرة باهتة :

- مدربة على ماذا؟

قال بابتسامة وضيعة : «أقسم لك . . إنها مخلصة جداً لعملها، جئت بفنجانين فقط يا صوفي . . اذهبي وأحضري واحداً آخر» .

قالت بسرعة : «علي أن أعد الشاي لتوم» .

لم تكن ترغب بحضور هذا اللقاء الحميم بينهما . . وبدا واضحاً، من الابتسامة الخبيثة على وجه المرأة الأخرى أنها لا تتمنى صحبة صوفي .

لكن، رأي شاي كان مختلفاً :

- لقد ذهب توم إلى الاسطبلات مع تاوني . . ولن يعود قبل ساعة على الأقل . . وبوبي تتلهف لتستجويك حول مؤهلاتك .

تاوني؟ من هو تاوني؟ . . والتقت صوفي بنظرته . إن كان يريد أن يسند إليها دور المربية، فحري بها أن تتظاهر بقيامها بعملها . .

قالت : «سأحضر فنجاناً آخر» .

أو أي شيء يبعدها عن العينين الساخرتين اللتين تؤكدان لها أن اهتمام شاي بوكانن بأمثالها، مجرد اهتمام عابر .

لكنني لا أريده أن يعيرني اهتماماً . . تمتمت بصمت، وهي تمسك بحافة طاولة المطبخ، تحاول تجاهل الضحكة الرنانة التي تردد صداها عبر باب المطبخ . . وحاولت مقاومة رغبة جامحة برمي شيء ما . . أريد أن أبتعد من هنا . . وأرحل بعيداً عن شاي بوكانن .

كانت لا تزال ثائرة حين مررت الحلوى اللذيذة التي تركتها تيريسا، وسألت بأدب مبالغ فيه :

- هل أنت هنا في إجازة يا آنسة كورزون؟

فأجابت المرأة وقد فاجأتها الفكرة :

- إجازة؟ . . لا . . أنا هنا في عمل، أنا وكيلة شاي الأدبية .

فصحح كلامها قائلاً : «كنت كذلك، يا حبيبتي . . وبما أنني توقفت عن الكتابة، لم أعد بحاجة إلى وكيل» .

- كيف لا؟ لعله مر زمن طويل على آخر مؤلف لك، لكنني ما زلت أعمل على إعادة الطبع والترجمة . . من المتوقع إعادة إصدار الطبعة المصغرة لأول كتاب لك، هذا الخريف .

ولم يبدُ الابتهاج على شاي لهذا الخبر .

وأضافت : «ستجني أرباحاً طائلة يا حبيبي . . وبإمكانك تحديد السعر

الذي تريده».

قالت صوفي: «لا أفهم».

واستدار الاثنان نحوها.

قالت بوبي بحدة. . آملة أن تتذكر المربية مكانها الصحيح.

ـ ما الذي لا تفهمينه؟

لم ترفع صوفي نظرها عن مكنستها الطويلة وهي تقول:

ـ أنا لا أفهم لماذا ادعى شاي أنه توقف عن الكتابة.

ضاقت عينا بوبي. . لكن صوفي فوجئت بنظرة عدم الذهول التي بدت على وجه شاي، وأكملت:

ـ إنه يكتب في كل يوم من أيام حياته، لقد قال لي هذا بنفسه.

تلقى هذا سيد بوكانن، قالته له عيناها: قد تكون قادراً على استبقائي كسجينة، وأن تسلي صديقتك المتحذلقة على حسابي. . لكنك لن تستطيع إسكاتي. . ولكن بعد أن ظهرت نظرة فولاذية في عينيه. . لم تعد واثقة من نفسها.

صاحت بوبي: «كتاب جديد؟ أخبرني؟ ما الذي تحضره يا شاي؟».

استدار نحو بوبي، وعلى فمه ابتسامة صغيرة، تدل على حسن سيطرته على نفسه: «أخشى أن تكون صوفي مخطئة».

نظرت بوبي إلى صوفي قائلة: «لكنها قالت. .».

ـ إنني أكتب كل يوم؟ أنا أكتب مذكراتي، ألا يفعل الجميع هذا؟

فقدت لبرهة القدرة على النطق.

ـ لكن، يا شاي، هذا سيكون. .

ـ هذه الكتابات ليست للنشر.

ثم رأى أنه أثار اهتمام بوبي أكثر، فمال إلى الخلف في كرسيه مضيفاً:

ـ في الواقع، أنا مشغول جداً هذه الأيام. .

ـ أعرف. . لقد رأيت لوحة إنشاءات كاسل في كل مكان يا حبيبي. .

وأنا متأثرة جداً. لكن هذا ليس من طباعك. .

ـ إنه كذلك الآن.

ارتفع حاجبا صوفي عجباً، وهي متسائلة: «إشارات كاسل؟ هل أنت. .؟».

ولامست أصابعها البطاقة في جيبها.

بدت التسلية على بوبي وسألت: «ألست على علم بالأمر؟».

لكن صوفي لم تزعج نفسها بالرد. .

عادت بوبي إلى موضوعها: «بإمكانك أن تسلم إدارة الشركة لشخص آخر يا شاي، فموهبتك لا تقدر بثمن. . حسناً، فكر بتوم وبمستقبله. .».

ـ ربما. . لكن في كل مرة أعقد فيها صفقة أضطر إلى الوقوف وتعرية روحي. . كنت أمارس الكتابة منذ زمن بعيد. . ولكنني توقفت عن ذلك، لأن الكتب وحدها لا تكفي. . فهم يريدون المزيد والمزيد. . أحاديث، ومقابلات، وجولات ومحاضرات. . وحين ينالون ما يريدونه، ولا يجيدون ما يقولونه، يصبح الأمر شخصياً. .

ونظر إلى صوفي نظرة مخضعة مضيفاً:

ـ إنهم لا يستسلمون أبداً.

ـ شاي. . أعدك. .

ـ أنا آسف إن كانت رحلتك من دون جدوى يا بوبي.

امتدت يد بوبي مرة أخرى إلى ذراعه وقالت بصوت أجش:

ـ لم تكن سدى. . تعال نتعشَ معاً الليلة يا شاي. . سنستعيد الأيام الخوالي.

وقفت صوفي وهي تقول: «أرجو المعذرة».

وحملت الصينية ودخلت إلى المطبخ.

بعد أن أوصل شاي بوبي إلى سيارة الأجرة التي تقلها، دخل إلى المطبخ، يراقب صوفي وهي تغسل الصحون. . كانت تعرف جيداً أنه

ينتظرها لتستدير وتواجهه. . فخلعت القفاز المطاطي الكبير الحجم الذي وجدته في الخزانة تحت المغسلة وأخذت نفساً عميقاً تهدىء توترها.

قالت تسأل وهي تستدير لتواجهه: «أظنك ستخرج للعشاء هذه الليلة؟».

ـ هذا من سوء حظي. . لأنك على ما يبدو طباخة ماهرة.

ـ يبدو لي أنك لا تعرف شيئاً عن الطبخ.

طوى ذراعيه، وقال بثبات: «أبداً».

جعلتها طريقته في الكلام تشك في صحة ما يقول.

سألت تغير الموضوع فجأة:

ـ من هو تاوني؟

ـ إنه شقيق تيريسا، ويعتني بالجياد والحديقة.

ـ يدهشني أنك لم تعطه أيضاً إجازة، هل قاومت إغراء إرغامي على قلع الأعشاب الضارة وتنظيف الاسطبلات؟

خطا خطوة نحوها، وكادت تجفل وقد رأت وميض التحذير في عينيه. . أمسك يديها، ورفعهما، ثم قلبهما لينظر إلى كفيها:

ـ كان الإغراء صعباً جداً يا صوفي ناش. . لكن لسوء الحظ. . ليست يداك في حالة تسمح لهما بالتعامل مع الرفش.

تجاهلت بصعوبة القشعريرة التي سرت في جسمها للمسته وهو يحتضن يديها، وساعدها في ذلك صدى صوت بوبي كروزون الأجش.

ـ لا بد أنها كانت خيبة أمل كبيرة لك!

نظر إلى أصابعها، التي لا تزال تحمل آثار تسلقها البائس على الصخور، وتلاشت الرقة من عينيه وهو يحدق بها.

ـ لعلها تشفى سريعاً فتعملي ليوم أو اثنين قبل أن تغادري.

ـ لما لا تستخدمني للعمل في أحد مواقع البناء؟

ـ لا تحاولي إغرائي!

ـ إنسى الأمر يا شاي. . سأرحل اليوم. . لا بل الآن وعلى الفور.

اشتدت قبضته على أصابعها:

ـ لا. . يا صوفي. . ستبقين إلى أن أطلب منك الرحيل.

ـ لن تستطيع!

لم يرد. . لم يكن بحاجة للرد.

ـ إلى متى؟

ـ لأسبوع. . أو أكثر، يمكنك اعتبارها إجازة للراحة.

ـ وهل هذه فكرتك عن الإجازة؟

ـ توم ليس صعب المراس.

ـ أنا لا أعترض على صحبة توم.

ـ لكن رعايتك له لبضعة أيام بمثابة تعويض ثمين عن كل الإزعاج الذي سببته لي. أرسلت أفلامك هذا الصباح.

ـ أوه!

بالرغم من محاولتها خداعه، كان يحترم اتفاقها. . وسألت بلهفة:

ـ إلى أين؟ إلى أي مختبر أرسلتها؟

ـ أتتوقعين حقاً أن أخبرك ذلك؟

كلما لمسها تنسى كل شيء. . انتزعت يديها منه، فابتسم:

ـ لا داعي للقلق. . لقد أرسلتها إلى مختبر محترف.

قالت متصلبة: «شكراً لك».

رفع حاجبه مذهولاً: «أهذا عرفان بالجميل؟».

تجاهلت سخريته: «متى يعيدونها لك؟».

ـ ولماذا تسألين؟ أليس لديك أمور أخرى تشغلك؟ هل ثمة شخص آخر بريء تصوبين عليه عدساتك البعيدة المدى؟

ـ لا. . ليس لدي أحد.

مرة واحدة تكفي.

ـ لماذا العجلة؟ تريد تيريسا الذهاب لرؤية آخر حفيد لها. . وستعود بعد أسبوع تقريباً.

ـ لكنك لم تستبقيني هنا لإعطاء تيريسا عطلة؟ بل أنت تريدها بعيدة عن المكان. . لأنها إن عرفت أنك تحتجزني ضد إرادتي. . ستقف في وجهك. . ألن تفعل؟ فما هو السبب الحقيقي إذن؟

***

٦ ـ كابوس

نظر شاي إليها، وقال:

ـ هذا ليس من شأنك صوفي ناش. . ليس عليك سوى أن تحسني التصرف لبضعة أيام. . وتستطيعين بعدها الرحيل.

سألت: «كم يوم؟».

ـ قدر ما يلزم.

ساد التوتر بينهما لبرهة، وهما ينظران إلى بعضهما البعض بحدة. . ثم مرر يداً عبر خصلة شعر وقعت على جبينه.

ـ صدقيني حين أقول لك إنني لا أريدك هنا مدة أطول مما ينبغي. . لقد أمضيت النهار أحاول تسوية بعض. . الأمور.

أية أمور «لعينة» يا ترى؟ وبذلت جهدها لكبح فضولها. . لا تريد أن تعرف، لا تريد أن تعرف شيئاً. . لكنها نظرت إليه بإحباط.

ـ لقد خاطرت كثيراً بترك توم برفقتي. . لنفترض أنني غادرت المكان وتركته لوحده؟

ـ توقفت منذ سنوات عن ترك أي شيء للصدفة. . كان تاوني قريباً من هنا، يبقي عينه على توم.

ـ ويمنعني من الذهاب؟

ـ الذهاب؟ وإلى أين كنت ستذهبين. . ؟ سيراً على القدمين، دون مال أو جواز سفر، لا أعتقد هذا. . سيبقى السبب الحقيقي لبقائك هنا سراً بيننا.

ـ سرك أنت وحدك. . بل واحد من أسرارك.

ـ والوحيد الذي لن تعرفيه.

ـ وكم سراً لديك؟ هل من المعروف مثلاً أن شركة إنشاءات كاسل هي ملك لك؟

امتدت يده وأمسكت ذراعها: «هذا هو عملي إني رجل أعمال ناجح. . ولا عيب في ذلك».

ردت بسرعة: «أبداً».

ـ إذن، سنحتفظ بسر بقاءك هنا بيننا، واضح أنك تفضلين ذلك، وإلا كشفته لبوبي.

ـ لقد حرصت بنفسك على ألا تتاح لي الفرصة لذلك، وهل هذا هو سبب إصرارك على أن أحتسي الشاي معكما؟ أكنت تخشى أن أكتب صيحة استغاثة وأدسها في سيارتها؟

ـ كم أنت ذكية يا صوفي. . من المؤسف إضاعة كل هذا الجمال والذكاء في هذه المهنة الخسيسة.

تذكرت أختها. . فسحبت نفساً عميقاً لأن الألم اعتصر قلبها.

لكنه قطب متسائلاً: «ما الأمر؟ ماذا قلت؟».

ـ لا شيء. .

سنغير الموضوع، قولي شيئاً. . أي شيء.

ـ أنا. . أعتقد أن من المؤسف ألا تنشر ما تكتبه.

شعرت بالارتياح وقد لاحظت اهتمام شاي بكلامها:

ـ هذا أقرب إلى المديح.

ردت بحذر:

ـ أنت لا تحتاج إلي لأقول لك كم أنك ماهر، أو كنت كذلك. لقد انقطعت عن العمل تماماً فلماذا.

نظر إليها:

ـ أنت لا تعرفين شيئاً عن الموضوع.

ـ لا أعرف؟ لماذا لا تخبرني إذن؟ هل يعاني شاي بوكانن العظيم من عقدة الكاتب؟

كانت تعرف الرد. . لا يستطيع التوقف عن الكتابة، لكنه يفضل ألا ينشر شيئاً بدل مواجهة الجمهور. . ولا بد من وجود سبب وجيه. . ما الذي يعرفه نيغل؟ أو يشك به؟ وتابعت متهورة:

ـ لم يخدعني كلامك السخيف عن المذكرات. ولا أعتقد أن بوبي لتنخدع لو أنها فكرت ملياً بالأمر فما الأمر إذن؟ ممّ تختبىء؟

ولمعت صورة الفتاة الجميلة التي رأتها في الصورة في رأسها، فسألت: «ماذا حدث لزوجتك يا شاي؟».

تحول لون وجهه إلى بياض شاحب، أكان هذا غضباً أم صدمة، فهي لا تدري. . كبتت أنفاسها، وهي تتوقع أن يصب غضبه عليها ولكنه لم يفعل.

ـ ماريا. . ماتت.

ساد صمت كامل ثم أخذت صوفي نفساً عميقاً، وهمست:

ـ أنا آسفة. . تصرفي هذا لا يغتفر.

قال: «تصرفاتك كلها لا تغتفر يا صوفي».

همست: «تدفعني. . دائماً، لإظهار أسوأ ما فيّ».

ـ حقاً؟

أمسك ذقنها بيده، ورفع وجهها لتلتقي عيناها الحالمتان بعينيه المتفرستين اللتين لا تتركان شيئاً. . وبدا أن هذا سيدوم إلى الأبد.

ـ أتساءل ما هو الأفضل لديك؟

ردت، متشنجة، وهي تعي تماماً أن أصابعه التي تداعب عنقها تجعلها ترتجف:

ـ لن تجد رداً على سؤالك هذا.

وظل يحدق فيها متأملاً، يبحث في وجهها، وذعرت:

ـ قد يختلف الأمر إن تركتني أحتفظ بصورك، سيختلف الأمر.

ـ صحيح؟ في هذه الحالة، سأكتفي بالأسوأ. .

وابتعد عنها واستدار ليغادر المطبخ، ويفوته بهذا الارتياح وهي تستند بضعف إلى المغسلة، ثم قال بلهجة أكثر خشونة:

ـ من الأفضل أن ترافقيني إلى الاسطبلات لإحضار توم. . يريد أن يريك جواده الصغير.

وقفت برهة لتستجمع أنفاسها، فنظر إليها بنفاذ صبر. . وسارعت تقول: «أنا قادمة».

خرجا من المطبخ وعبرا الحديقة ليصلا إلى ممر ضيق يحده جداران من الحجر القديم الجاف نزولاً على تل نحو مجموعة أبنية.

كان السير إلى جانبه، وذراعه تلامسها مع كل خطوة في الممر الضيق، كابوساً لها. . حاولت أن تتباطأ في السير، لكنه وضع يده على كتفها، ليساعدها في المرور. . وسرعان ما تحول توترها إلى توهج حار.

وقاومت صوفي أحاسيسها، وهي تتذكر مع كل خطوة إهاناته، وملاحظته القاسية ومحاولاته الدائمة لإبراز سيطرته التامة عليها. ولم يغب عن ذهنها أنها سجينة. . وفي مكان ما بعيداً عن هنا ينتظرها نيغل خارج هذا المكان، لتخبره كل شيء. . ونظرت إلى الرجل القريب منها، وأحست ببؤس شديد يمزق أحشائها.

وجه توم المبتهج، ويديه الصغيرتين شدتها من أفكارها لتبدي إعجابها بالجواد الصغير الذهبي اللون.

كان توم يضحك والمهرة الصغيرة تلاحق يده بأنفها طلباً للسكر و«تاوني» يدندن لحناً غريباً وهو يعمل. .

قالت صوفي تتذكر نصاً أدبياً بصوت ناعم:

ـ «الجزيرة تضج بالأصوات، وينفح فيها هواء عليل يبعث الراحة في النفس».

ثم استدارت إليه:

ـ ولكنها سجني يا شاي، حتى وإن لم أكن مكبلة.

وأجبرت نفسها على مواجهته، والنظر إلى خطوط فمه القاسية، وعينيه الضبابيتين.

ـ أنا آسفة لسؤالي عن زوجتك يا شاي. . لا بد أنك كنت تحبها كثيراً.

لم يرد. لم يكن بحاجة للرد. . فتعبير الألم القصير الذي مر لبرهة على وجهه كان الرد الذي تريده.

في وقت لاحق عندما كانت تسير مع توم في الممر سألته:

ـ متى عيد ميلادك يا توم؟

قال: «يوم الأحد. . أتظنين أن بابا سيسمح لي بإقامة حفلة؟».

ـ لماذا لا تسأله؟

بدا الارتياب على وجه توم وقال:

ـ لو سألته أنت، لوافق لأنه معجب بك.

نظرت مجفلة وقالت: «وما الذي يجعلك تظن هذا؟».

رد توم بثقة: «لقد أغرقك في البركة. . والمرء لا يفعل هذا إلا مع من يعجبه».

كتمت ضحكتها وقد راقت لها وجهة نظره الطفولية حول الصداقة. .

كانت صوفي تعلم توم كيف يصنع فقاقيع الماء في مغطس الحمام، حين جذب صراخه الضاحك شاي الذي جاء يستفسر عن سبب هذا الاهتياج، وعند وصوله، ارتفعت المياه فوق حافة المغطس لتبلل حذاءه وسرواله.

ـ ما الذي. . .؟

قبل أن تستطيع صوفي منعه، صاح توم: «بابا، أنظر».

وقلد ضربتها في الماء.

قفزت صوفي واقفة، وقالت: «أنا آسفة. .».

كان شاي يراقب توم وهو يلعب في المغطس. . وقال:

ـ كنت أفعل هذا مع مات.

- مات؟

نظر إليها، وقال: «إنه أخي، كنا نتنافس لنرى من منا يمكنه أن يحدث أكبر الفقاقيع. فنزرع الفوضى في كل مكان..».

وهز كتفيه مضيفاً:

- كنا نتنافس على كل شيء تقريباً.. يا لحماقتنا!

وعاد ينظر إلى ابنه.

قالت: «حقاً؟ كنت دوماً أتنافس مع أختي، لكن من دون جدوى».

سألها بحدة: «وهل توقفت الآن عن منافستها؟».

قالت مرتجفة: «نعم.. لقد كبرنا».

- هذا ذكاء منكما.. لم يتغلب مات يوماً على واقع أنه يصغرني بعام، مما كان يدفعه إلى السعي لإثبات وجوده، أعتقد أنه كان يجدر بي أن أتركه يكسب بين الحين والآخر.

قالت: «كان سيعرف هذا».

لطالما كانت تعلم، في تلك المناسبات النادرة التي أشفقت جيني عليها بها، وأكملت: «وهذا أسوأ بكثير».

قال بغضب: «لعلك محقة».

التفت إليه، وقد شعرت بغضبه.. ماذا قالت بحق السماء؟ قال:

- سأذهب لأغير ملابسي. إذا احتجت إلى أي شيء الليلة، تجدين تاوني في كوخ خلف الاسطبلات.

هل كان يذكرها بأنها مراقبة؟

ردت بحدة: «سأكون على ما يرام.. تعال يا توم.. بردت المياه.. حان وقت الخروج منها».

قال توم بصوت مرتفع: «اسأليه الآن يا صوفي!».

فأسكتته قائلة: «لا يا توم.. ليس الآن».

ولكن الأوان كان قد فات.. لأن شاي سمع كلامهما، فسأل وهو يستدير عند الباب: «تسألني ماذا؟».

لفت صوفي توم بمنشفة وأبقت عينيها مسمرتين عليه:

- يعتقد توم أنك قد توافق إن طلبت منك أن تقيم له حفلة عيد ميلاد.. ولا أعرف لماذا.. فأنا واثقة أنك ستسمح له بإقامة حفلة.

سادت لحظة صمت طويلة، ورفعت نظرها أخيراً، وهي لا تعي أن عينيها تتوسلان من أجل الصبي، ونظر شاي إليها متفرساً. ثم استدار إلى توم وقال: «وهل كانت هذه فكرتك؟».

أجاب الولد: «أجل».

حدّق شاي في صوفي بتحدٍ ولكنه ما لبث أن التفت إلى توم وقال: «حسناً..».

وأضاف: «تريد إذن حفلة عيد ميلاد؟».

هز الولد رأسه إيجاباً، وقد حبس أنفاسه.

- أي نوع من الحفلات؟

- بمثل التي أقامها عمي مات.. جدتي أخبرتني عنها.. بلباس «الكاوبوي» والهنود والشواء على الشاطىء.

وبدأ يعد لائحة طويلة بالأطباق، والمدعوين، والألعاب.

- هل أستطيع هذا يا بابا؟ أرجوك؟

جلس شاي القرفصاء إلى أن أصبحت عيناه على مستوى عيني توم، وقال: «الحفلة تحتاج إلى الكثير من العمل.. فمن سيهتم بذلك؟».

قال توم بكل ثقة: «صوفي».

استدار يرفع نظره إليها: «أليس كذلك يا صوفي؟».

رفع شاي عينيه لينظر إليها.. فلاحظت أن بريق التسلية حل محل الغضب.

- حسناً. إذا كانت صوفي على استعداد لتنظيم الحفلة، سنقيم لك واحدة يا توم.

ردت قائلة: «لكن هذا ليس..».

عدلاً؟ ليس عدلاً؟ لكنه يجد الأمر مسلياً.. لذلك اعتبر موافقتها أمراً

مسلماً به.

صاح مبتهجاً:

ـ نعم! حفلة! شكراً لك يا صوفي.. شكراً لك يا بابا!

حذره والده قائلاً:

ـ لكننا سنقيمها يوم السبت بدلاً من يوم الأحد.

نظرت صوفي إلى وجه توم المبتهج وعرفت أنها لن تستطيع قول شيء له.. لقد أوقعاها في الفخ، واكتشفت فجأة أن ثمة طرق كثيرة للبقاء أسيرة، وهذا ما يعيه شاي تماماً.

قالت متنهدة: «تعال يا توم، عليك أن تخلد إلى الفراش».

تركته يعد لائحة بالأصدقاء الذين يحب دعوتهم لحفلة عيد ميلاده، ونزلت بحثاً عن شاي. وجدته في غرفة الجلوس.

رفع نظره عن طاولة الشراب، وقال لها. «هل ترغبين في شيء؟».

ـ عصير كرز وتونيك، لو سمحت.. لقد تصرفت معي بخبث. يا شاي.

قال موافقاً:

ـ هذا صحيح. ولكنك تصرفت بخبث أكبر بمنضدتي.

احمر وجهها، وسألته: «وكيف عرفت؟».

رفع كأسه يحييها: «لم أكن أعرف.. لكنني عرفت الآن».

ـ أوه!

ـ لقد رأيت صورة ماريا.

ارتشفت عصير الكرز والتونيك بتوتر، وقالت:

ـ كنت أبحث عن جواز سفري ومفاتيح السيارة. كانت جميلة جداً.

ـ أجل.. هذا صحيح.

وضع كأسه بحدة:

ـ وأفترض أنك رأيت أيضاً مسودة القصة.. فهل قرأتها؟

ـ لا.

ـ ليتك كنت أكثر تحفظاً أمام بوباي.

ـ بما أنني أسبب لك المشاكل، فلماذا لا تعيد النظر في مسألة رحيلي؟

ـ وأخيب أمل توم؟

أخذت نفساً عميقاً: «في هذه الحالة يا شاي.. أعترف بصراحة أنني سمحت لنفسي بأخذ بعض الأوراق من مكتبك لأكتب رسالة إلى جارتي..».

وأضافت:

ـ هل يمكن أن ترسلها لي.. ستقلق إن لم أخبرها أنني سأتأخر.

ـ حسناً سأرسلها إنما ليس قبل أن افتحها.

ـ لا مانع عندي.

ـ بابا؟

استدار شاي يسأل بحدة:

ـ ماذا تفعل خارج الفراش يا توم؟

كان الولد يمسك ورقة وقلماً: «أردت فقط أن أسأل صوفي..».

ـ تسأل صوفي ماذا؟

تدخلت صوفي: «شاي!».

وأسرعت نحو الصبي تضع ذراعها حوله، وتسأله بلطف: «ما الأمر؟».

ـ أردت أن أسأل. هل يرغب صديقك في المجيء إلى حفلتي؟

شحب وجه صوفي وأخذت تتصبب عرقاً، وسأل شاي:

ـ صديق؟ أي صديق يا توم؟

استرخى توم وقد اطمأن للهجة أبيه اللطيفة وقال:

ـ لقد جاء بالأمس.. حين كنت خارجاً.

ـ حقاً؟

والتقت عيناه بعيني صوفي من فوق رأس الصبي ووجه السؤال لتوم:

ـ وما كان اسمه؟

قالت: «اسمه نيغل».

ـ نيغل. . طبعاً. . ضعه على لائحتك. . يسرني أن ألتقي به.

تقدم نحو الصبي قائلاً: «عد إلى فراشك الآن».

وعاد الصبي ليصعد السلم. . وساد الصمت لفترة طويلة بعد ذهابه.

سألت صوفي أخيراً:

ـ وهل كنت تظن أن بالإمكان أن أختفي دون أن يقلق عليّ أحد؟

ـ ولماذا افترض أنك هنا؟

ـ وأين يمكن أن أكون؟ كان ينتظر عودتي إلى بلادي. . وحين لم أظهر، اتصل بالفندق. . ولم يجدني.

ـ لماذا لم ترحلي معه؟

ـ ألا تظن أنني أردت الذهاب معه؟ لكن جواز سفري معك.

ـ كان بإمكانك الحصول على وثيقة سفر مؤقتة من المفوضية البريطانية.

ـ والكاميرا؟

ـ لا بد أنك أمنت عليها.

قالت بشيء من اليأس: «لم أستطع ترك توم. .».

ـ هل سيعود؟

أجفلت لفكرة انتظار نيغل لها مساء الأحد. . وقالت بسرعة:

ـ لا، ولماذا يزعج نفسه بالعودة؟ لم أنفذ. . .

دس الرسالة في جيبه:

ـ اللعنة عليك! كان عليّ أن أرميك خارجاً، مكدومة كما كنت.

ـ ولماذا لم تفعل؟

ـ لست أدري!

ونظرا إلى بعضهما بكراهية شديدة، ثم تقدم خطوة نحوها. وقال بصوت ناعم: «بلى. . أعرف».

وأمسك كتفيها يشدها نحوه، ويلف يديه حولها في عناق عنيف.

بدا وكأنه يكره نفسه لعدم قدرته على مقاومتها. . وكأنه يعاقبها لاستسلامها له. . كان عليها أن تقاومه. . وتحاول ردعه، لكن الأوان قد فات.

انزلقت يداه من كتفيها إلى خصرها، فتلامس جسداهما. وشعرت بكيانها يذوب بين أحضانه. . وكادت تنسى كم تكرهه. . لما فعل بها. . إلا أنها ما لبثت أن تمالكت نفسها وتنبهت إلى أن تعجرفه قد يصور له أنه قادر على عناقها ساعة يحلو له، فطوحت قدمها اليمنى ورفسته، بقوة، على عظم ساقه.

كان اشتداد قبضته عليها الدليل الوحيد على أنه أحس بالألم. . ثم، تركها بتنهيدة متكسرة، وتراجع إلى الوراء. . ينظر إلى ساقه وكأنه لا يصدق ما حصل. . ثم رفع رأسه وقال:

ـ كان عليك أن تقولي يا صوفي إنك لا تستمتعين بعناقي.

لم تصدق أذنيها، وقالت كاذبة:

ـ ماذا؟. . دعني أقول لك إنني أستمتع أكثر بزيارة طبيب أسنان. . وإن لم أقل لك ذلك فلأنني كنت عاجزة عن الحراك.

لامست أصابعه الباردة أطراف فمها:

ـ هذا صحيح. . لكن لا داعي لاستعمال العنف في المستقبل. . فإن توقفت عن الاستجابة لشخص ما، فهو عادة يتلقى الرسالة. .

لكنها لم تفعل هذا. . ! لم تتجاوب معه! كيف يجرؤ على الإشارة أنها فعلت؟

ذكرته بحدة: «أولست متلهفاً لموعدك؟ أظن أن بوبي كورزون ستقدر أكثر مني وسائل رجل الكهف التي تمارسها».

قال بصوت حاد:

ـ قد تكونين محقة. . سأعلمك هذا في الصباح.

واستدار ليخرج من الغرفة. . انغلق بعد لحظات الباب الأمامي

بعنف، مما جعلها تجفل.

وتسمرت مكانها تستجمع أنفاسها، وبالكاد تصدق أذنيها.. وثورة الغيرة الحادة التي لذعت حلقها. فما الذي ستقدمه له بوباي كورزون؟

هربت إلى المكتبة.. إن كان المفتاح يفتح باب الطابق الأعلى، ستعد خطة الهرب. ولكن، حين فتحت الدرج، لم تجد المفتاح.

* * *

ـ صوفي! صوفي.. استيقظي!

حاولت أن تتكلم.. لكن الذعر تملكها، ولم تقو على الكلام. كان قلبها يخفق بشدة.. لم تصدق أنها حية.. وأن شاي يضمها إليه، يهزها بلطف، وذراعاه حولها، وخدها متكيء على صوف روبه المنزلي.. كان صوته ملحاحاً: «استيقظي.. أنت بأمان».

رفعت رأسها تنظر إليه كان حلماً.. أليس كذلك؟.

ـ بل هو أشبه بكابوس.

كانت ترتجف من الخوف.

ـ كنت أقع.. وأقع.. كان الأمر مريعاً.

ـ هل تراودك الكوابيس دائماً؟

ـ ليس بهذا الشكل.

ليس كابوساً حقيقياً.. مجرد أحلام مرهقة تفتش فيها سدىً عن أختها.. قالت: «لم يراودني كابوس مماثل من قبل».

أبعدها قليلاً عنه ونظر إليها:

ـ تعالي معي إلى الطابق السفلي، سأسخن لك بعض الحليب.

إلا أنها شعرت بالخطر وهو يضمها إليه، على سريرها في منتصف الليل.. وتراجعت عنه قليلاً، وقالت:

ـ لا.. سأكون على ما يرام.

حاولت أن تخفي ذعرها، لكنها كانت ترتجف.. لم تكن قد

استفاقت بعد من كابوسها المريع.

قال يحذرها: «لحظة تغمضين عينيك، سيراودك الكابوس مجدداً».

نظر حوله، وأخذ عباءتها من خلف الباب وناولها إياها.

ـ يجب أن تستيقظي جيداً قبل أن تسترسلي بالنوم ثانية.

لاحظت أن الغطاء قد وقع على الأرض خلال هياجها، ليتركها مغطاة فقط بثوب نومها فنهضت من فراشها وارتدت العباءة ولفتها بثبات حولها.

تمتمت، وقد رفعت عينيها عن العباءة الحريرية القصيرة المربوطة دون اكتراث حول خصره.

ـ آسفة لإزعاجك.

ـ لم أكن نائماً.. تعالي.

وضع يده على ظهرها بحزم وأخرجها من الغرفة، لينزلا السلم، ويتجها إلى المطبخ:

ـ لماذا لم تستطع أن تنام؟

أخذ علبة الحليب من البراد وصب محتوياتها في وعاء وضعه على النار.

ـ قلت إنني لم أكن نائماً.. وليس أنني لم أستطع النوم.

ـ لكن.. الساعة الثالثة صباحاً.

واحمر خداها خجلاً.

ـ أوه!

أخذت تفتش عن كوب لتغطي ارتباكها.. واضح أن يوبي رحبت به فاتحة له ذراعيها.

أخذ الكوب منها: «وضعت رسالتك في البريد».

ـ قرأتها إذن؟

لم يرد.. بل سأل:

ـ لم تكتبي إلى والديك.. ألن يقلقا أيضاً؟

صب الحليب بعناية وأعطاه لها.

www.elromancia.com

أخذت ترتشف الحليب، لتتفادى مناقشة علاقتها بوالديها معه.
ـ لا أعيش في منزل أهلي.. وهما لا يعرفان مكاني.
ـ ذكرت شقيقة لك. ماذا عنها؟
أحست فجأة بشوق إليها: «جيني.. نحن توأم متماثل».
ـ متماثل.. فليساعدنا الله.. ثمة اثنتان منك؟
استجابت عيناها لابتسامة غير متوقعة.
ـ هذا ما أخشاه.. على الأقل، كنا متماثلتين.
ـ كنتما؟
ـ لم أرها منذ سبع سنوات. هربت من المنزل وهي في السابعة عشرة.
بدا عليه الذهول والغضب: «هربت؟ لماذا؟».
اشتد ضغطها على شفتيها لاستهجانه.. ما الذي يعرفه عن شؤون الحياة، وهو منعزل في عالمه الخاص؟ قالت:
ـ إنها قصة عادية.. تورطت مع رجل لم يوافق عليه والديّ.. وبعد أن أغواها، تركها تواجه مصيرها وحدها.
ـ لكن، هل كان والداك قاسيين؟
وبدا أن السؤال مهم له:
ـ لا.. لم يكونا أبداً قاسيين معها. بل على العكس.. والشيء الوحيد الذي منعاها عنه جعلها تبتعد. كانا يحبان جيني.. ويفعلان أي شيء لها. فهربت.. بعد أن أدركت أنها أساءت التصرف.
وأخفضت رموشها لتخفي دموعها.. لقد راقبت والديها يتقدمان في السن وهما حزينان على ابنتهما الجميلة، التي لم تشأ أن تتحمل توبيخهما، فحملت جرحها واختفت من دون أثر. ولم تستطع أن تواسيهما.. فهي كانت الصورة المنعكسة لطفلتهما الضائعة، فلم يتحملا وجودها إلى جانبهما وسرعان ما تركت البيت بدورها.
أما الآن، فالفرصة متاحة أمامها لجمع شمل العائلة، وكل ما يلزمها، هو صورة لشاي بوكانن، ولكنها أفسدت تلك الفرصة.. وأعطاها نيغل

فرصة جديدة.. إن استطاعت أن تجمع بعض الإشاعات.. القذرة..
نظرت إلى الكوب.. ولماذا بقيت هنا؟ سجينة له؟ تجلس في هذا المطبخ الصامت في هذه الساعة المتأخرة من الليل، تشرب الحليب الدافىء، وتستعيد وعيها من كابوس مريع.. مع رجل تعرف أنها يجب أن تكرهه؟ لكنها لا تكرهه، مهما حاولت جاهدة.
وقفت فجأة، وتقدمت إلى المغسلة تغسل الكوب. حسناً.. عليها أن تبذل جهداً أكبر، من أجل جيني.
قال، متقدماً خلفها، يأخذ الكوب منها:
ـ دعيه..
تشابكت للحظة أصابعه الطويلة القوية مع أصابعها.. ورفعت نظرها إليه من فوق كتفها، وهي تود الاحتجاج، لكن، عندما التقت عيناهما، ماتت الكلمات في حلقها. كانت نظرته عميقة لا قرار لها.. وبقيا مسمرين في مكانهما لبرهة.
قالت بسرعة:
ـ يجب أن أعود إلى الفراش.. شكراً لك.. لمجيئك إلي..
وترددت، غير قادرة على التفكير بكلمة مناسبة.
ـ إلى ماذا؟
ـ إلى مساعدتي..
ورفعت ذقنها قليلاً.
ـ في أي وقت يا صوفي.. في الواقع يكاد أن يصبح هذا عادة عندي.
«عادة؟» وكررت الكلمة مرة أخرى وهي مستلقية في السرير..
بالرغم من توصياته لها بالنوم، إلا أن صوفي بقيت مستيقظة لوقت طويل،.. وأجبرت نفسها على كراهيته.

* * *

٧ ـ مأساة فوق الصخور

مع شروق شمس اليوم التالي، فتحت صوفي عينيها لتجد رأس شاي الأسود والمشعث منحنياً فوقها. . وقال:

ـ حان الوقت لتنهضي.

كان النهار صافياً بصفاء اللؤلؤ. وأدركت أن الوقت مبكر جداً، وكأنه لم تمض برهة منذ أغمضت عينيها. وتأوهت، تتذكر أن توم دعاها البارحة لركوب الخيل معه باكراً.

ـ كم الساعة الآن؟

ـ لا داعي لأن تعرفي.

ـ أهي مبكرة إلى هذه الحد؟

ـ يستحق الأمر العناء.

وشعرت كأنه يندم على اللحظات الحميمة التي جمعتهما في ساعة متأخرة من الليل. .

جلست في السرير، وقالت:

ـ وهل هذا وعد؟

ـ لديك ضماني المطلقة. . لكن أمامك خمس دقائق فقط للاستعداد إن كنت ترغبين بمشاهدة شروق الشمس من على قمة الجبل.

نظرت إليه بدهشة:

ـ خمس دقائق؟ يمكن أن أستعد لحفلة في خمس دقائق.

قال وهي تنهض من فراشها: «هذا ما أتلهف لرؤيته».

واحمر وجهها وقد أدركت أنها تقدم له مجاناً نظرة هي أكثر من أن تكون متعقلة في هذه الظروف، وامتدت يدها إلى الغطاء ترفعه حتى ذقنها.

سألت بحدة: «ماذا عن توم؟ هل استيقظ؟».

ـ إنه في الأسفل يتناول الفطور. . سنقابلك عند الاسطبلات. . بعد خمس دقائق.

بعد أن أغلق الباب وراءه، أسرعت إلى الحمام لتغسل وجهها بالماء البارد، ثم ارتدت قميصاً عاجياً ناعماً وسروالاً مريحاً لونه أحمر قاتم. .

كان شاي يساعد توم على ركوب الخيل حين دخلت الفناء بسرعة.

قال بنفاذ صبر: «هيا الآن يا صوفي. . اصعدي».

استدارت لتضع قدمها بين يديه المتشابكتين، وليرميها فوق السرج. .

أمسكت اللجام تتمتم بضع الكلمات المطمئنة لروان، وهي تسير بها حول الفناء. ونظر إليها شاي طويلاً، ليتأكد من أنها تعرف ما تفعله، ثم امتطى الجواد الكستنائي الكبير.

ـ سر في الطليعة يا توم.

وتقدم توم بكل ثقة بالنفس. . وراقبته صوفي بإعجاب كبير. .

بينما كانا يتسلقان قمة الجبل، خلف توم، كانت الشمس تشرق، وتنشر أشعتها الذهبية على الأرض. وقفا يراقبان بصمت وقد تحولت الصخور السوداء والأرض البنية المحروقة إلى لون ذهبي.

تمتمت: «أعتقد أن هذا أجمل شروق للشمس شاهدته في حياتي».

منذ التقت شاي بوكانن. . والأشياء تبدو متجددة ولماعة.

تحرك الجواد متململاً، وتابعوا سيرهم في ممر صخري. .

قال شاي لها: «من المؤسف أنك لم تجلبي الكاميرا معك اليوم. . كان بإمكانك أن تضيفي إلى مجموعتك صورة «شروق الشمس على شاي بوكانن».

كانت لهجته الناعمة تحمل في طياتها نبرة حادة. . فتحول فجأة جمال الصباح إلى رماد.

قالت يائسة: «الأنوار خافتة بعض الشيء.. وأنا أكره استخدام الأنوار الساطعة لتصوير الوجوه».

ـ أنا واثق أنك كنت سترغمين على ذلك.

ـ إنها مسألة نظرية.. لا أظنك ستجلس مسمراً أمامي لألتقط لك صورة، عند شروق الشمس أو في أي وقت آخر. أليس كذلك؟

ـ لا.. لن أفعل هذا، لكنني لا أحسبك نسيت سبب وجودك هنا.. إنك تتحينين الفرصة، آملة أن أفعل.

قاد الجواد إلى ممر سار به توم الذي لم يكن مهتماً بشروق الشمس.. وحذرها وهو يهمز الجواد ليسير بسرعة متوسطة.

ـ ابقي قريبة مني.

كادت صوفي أن تضحك عالياً. أيظنها فعلاً مجنونة لتحاول الهرب على ظهر جواد؟ فالتلال مليئة بحفر الأرانب القديمة.. وخطوة واحدة خاطئة، ويجد نفسه مرغماً على مساعدتها مرة أخرى.

لحقت به على مهل، لا تريد المخاطرة بحياتها أو أطرافها في ممر مجهول. لكن عند اقترابها من مفترق في الممر، وجدت شاي ينتظرها.. مسمراً على جواده.. يتطلع إلى البحر..

قالت وهي تدنو منه:

ـ إذا أردتني قريبة منك.. عليك الإبطاء في السير.

قال بفتور: «ظننتك تحسنين ركوب الخيل».

سار بقربها على مهل وهما يتقدمان معاً، عابرين مساحات شاسعة من النرجس والأزهار البرية التي كانت تصل أحياناً إلى مستوى ركبتيهما.. ومر الوقت بسرعة البرق، وهو يدلها على المعالم الأرضية الهامة.

كان توم يسير بسرعة كبيرة معظم الطريق.. فترجل ينتظرهما نافد الصبر في ممر عند قمة الصخور.

حين رآه شاي، أخذ يتمتم لاعناً في سره، ورمى اللجام لصوفي، وترجل عن سرجه، وتقدم إلى الصبي.

قال آمراً: «ابتعد من هناك».

قال الصبي بصوت مرتفع سمعته صوفي:

ـ لكنني أردت أن أدل صوفي.. على المكان الذي كنت وعمي مات تسابقان فيه صعوداً فوق الصخور.. أترى..

وأشار بيده، من دون أن يلاحظ ذهول والده.

ـ ... هنا بالضبط كانت عالقة.

واستدار راكضاً نحو صوفي:

ـ كان عمي مات وأبي يتسابقان صعوداً فوق الصخور، عند بداية كل عطلة صيفية.. قالت لي جدتي هذا، تعالي وانظري.

فكرت صوفي وهي تنزلق عن السرج، بأن جدته تلك مجنونة حقاً.. فالصبي يتلهف لمحاولة التسلق بنفسه. قالت بصوت هادىء، بالرغم من أن جسدها كله كان يرتجف لفكرة أنه قد يتسلق هذا الصخر الفظيع:

ـ لا بد أنهما كانا أكبر منك سناً.

قال متفاخراً:

ـ كان أبي في العاشرة وعمي في التاسعة.

قالت: «أمامك بضع سنوات لتجرب إذن.. حتى العم مات انتظر إلى أن بلغ التاسعة».

ظهر على وجهه تعبير شرس وخطير لفكرة الانتظار.. وقال بتصميم:

ـ سأفعل هذا قبل سن التاسعة.

نظرت صوفي إلى شاي، وهو يحدق في الصبي.. والصدمة بادية على وجهه، وقالت بسرعة:

ـ من الأفضل أن تعود إلى الاسطبلات يا توم، سيساعدك تاوني على النزول عن ميلي.

رفعته إلى المهرة، وراقبته يعود أدراجه.. ثم ربطت الجوادين إلى دغلة قريبة، وتقدمت نحو شاي.

غاص شاي فوق صخرة:

- لم يكن لدي فكرة بأنه يعرف، لا بد أنها أخبرته حين أتت في عطلة الفصح. وهذا يفسر اهتمامه المفاجىء.. لا أستطيع أن أصدق أن أمي بهذا الغباء، لتملأ رأسه بالكلام السخيف.

- يبدو فخوراً جداً بما فعله عمه مات.

وجلست إلى جانبه.

- تخبر أمي توم قصصاً كثيرة عن مات.. وحدها السماء تعرف أن قصصه كثيرة. لكن هذا..

واستدار نحوها:

- .. كيف استطاعت قوله؟

- لأنها تفتقده.

كان والداها يتكلمان دوماً عن تصرفات جيني المجنونة.

وأبعدت ذكرى أختها عن رأسها: «ماذا حدث له يا شاي؟».

- لقد.. وقع.

- وقع؟

نظرت إليه برعب وقالت: «من هنا؟».

كان وجهه كئيباً وهو ينظر إلى البحر.

- مضى على ذلك سبع سنوات، في السابع والعشرين من شهر تشرين الأول.

- وماذا كان يفعل على الصخور؟ لا أظنكما كبرتما في السن للإقدام على هذا الجنون.

رد بحدة: «وهل ينبغي ذلك؟».

ثم أدرك أن ما قاله ليس بتفسير، فهز كتفيه.

- كنا نأتي دوماً إلى مالطا لقضاء عطلة الصيف.. كان والدي في البحرية.. وقاعدته في مالطا. في أحد الأيام، استأجر البرج، وجعله مقراً للعطلات، وأصبح منذاك «تسلق المنحدر الصخري» جزءاً من العطلة.. كابوس ينبغي التغلب عليه قبل أن نتمتع بأسابيع من الحرية.

- ولكن لا أحسبكما استمريتما على هذا المنوال، إذ ليس من المعقول أن يخاطر الكاتب العالمي الشهير بحياته بهذه الطريقة.

- لا.. غبت عن مالطا أربع سنوات، بينما كان مات يعيش هنا. يدير نادياً للتزلج المائي خلال الصيف، ويرسم اللوحات خلال الشتاء.. تلك اللوحات التي في غرفة نومه.

قالت بهدوء: «إنها جميلة جداً».

أخذ يتفرس في وجهها، ليتأكد من صدق كلامها، فهز رأسه:

- كسبت تلك السنة جائزة أدبية، وكان العالم كله يطلبني.. فقمت بجولة محاضرات، في الولايات المتحدة، وأوستراليا، والشرق الأقصى.. ولا أعرف كم ألف ميل قطعت.. كتبت لمات أسأله إن كان بالإمكان أن أجيء لبضعة أشهر قبل البدء بكتاب جديد.. إذ تنازلت أمي عن البرج لمات فأصبح منزله الدائم. حين وصلت، كان في مزاج سيء.. وكان علي أن أفهم تلك الأعراض. إذ اعتاد على التصرف بهذا الشكل حين يخفي سراً ما، وبعد تلك الرحلات الطويلة كنت أحتاج للراحة، ولكن مات كان له أفكار أخرى.. فما كدت أجتاز عتبة البيت حتى تحداني «لتسلق المنحدر الصخري».

صمت مفكراً: «قلت له أن ينسى الأمر.. إذ لم نتسلق المنحدر منذ خمس سنوات.. كما وأنني لم أكن في شكل لائق للمحاولة، لكنه لم يدعني وشأني.. وادعى أنني أرفض ذلك لأنني واثق من هزيمتي.. فقلت له أن يعتبر هذا أمراً واقعاً».

أحست صوفي أن قلبها يتفطر شفقة. فهي تعرف ماذا يعني أن تتبع دائماً خطوات أختها المجنونة.. وقالت بكل أحاسيسها:

- لا بد أنه كان يغار منك كثيراً.

- لا أعتقد أنني أدركت كم يغار مني حتى ذلك الوقت.. على الرغم من أنني كنت دائماً أحسده على قدرته على الرسم.. وعرضت عليه إقامة معرض له.. لكنه رفض لاعتقاده أن لوحاته ستباع لمجرد أنه أخي، وكان

على خطأ.

صمت طويلاً، ولم تقل صوفي شيئاً، وراحت تتذكر تصميمها الدائم على تقليد كل ما تفعله أختها، التي كانت تقودها بكل قسوة إلى أخطار لم تكن قادرة على التعامل معها. . في السنة التي بلغتا فيها السادسة عشرة كسرت ساقها. إذ دفعت بجوادها من فوق سياج مرتفع قفزت عنه جيني بسهولة. . فأمضت شهوراً وساقها في الجبس. . ذلك الصيف، حين رحلت أختها لتلعب لعبة جديدة أكثر خطراً، تمكنت من مقاومة الإغراء، لكنها لا تزال تلوم نفسها لأنها لم تكن موجودة حين احتاجت إليها شقيقتها.

سألت أخيراً، في محاولة منها لطرد حزنها: «وهل تسلقت معه؟».

بدا وكأنه عائد من مكان بعيد:

ـ لا. . فحين لم أبد اهتماماً، ثارت ثائرته وصمم على التحدي. . كان مات متناسق الجسم من ممارسته رياضة التزلج على الماء طوال الصيف. . ولكن قبل أن يصل إلى الحافة مباشرة، بدا وكأنه علق، وصاح مستغيثاً.

اكفهر وجهه وهو يتابع كلامه.

ـ اعتقدت أنه يخدعني. . يحاول جرّي إلى المنحدر الصخري كي تسابق ويهزمني. لكن ما إن أدركت ما يحصل، وحاولت الوصول إليه، حتى كان الوقت قد فات. . لم أكن سريعاً بما يكفي. .

وقف فجأة وتقدم إلى الحافة، ينظر إلى الأسفل، إلى الهاوية. . راقبته صوفي وقد تملكها الحزن. ثم، استدار وعاد إلى حيث الجوادين وحرر لجامهما. . وأحست بخجل مرير للرعب الذي لا بد أنه أحس به حين شاهدها عالقة فوق الحافة. . وأرادت أن تقول له كم هي آسفة، لكن تعابير وجهه لم تخفف من عقدة ذنبها.

قالت وهما يهبطان التل: «شاي؟».

ـ ما الأمر؟

ـ هل يعرف توم كيف. .

وصمتت وقد تذكرت فجأة أمراً ما. فرد قائلاً:

ـ كيف توفي مات؟ لا.

وبعد أن رأى جبينها يتجعد في تركيز عميق. . قطب حاجبيه وأضاف:

ـ سأخبره كل شيء حين يصبح كبيراً بما يكفي ليفهم.

ـ إنه عنيد. . ولا أعتقد أن لديك الوقت الكافي، عليك إخباره في أسرع وقت ممكن.

ـ حقاً؟ وهل تقترحين أن يشمل ذلك، الجزء الذي تحامقت فيه ولم أعرف أن مات في مأزق إلى أن فات الأوان لمساعدته؟

كاد قلبها ينفطر حزناً عليه، فمدت يدها متهورة لتلمس يده.

ـ لا تلم نفسك على ما حدث. . كان مات يعي المخاطرة.

وكذلك جيني. . قفزت الكلمات إلى رأسها. . لقد اختارت جيني أن تعيش مع الخطر. . كانت تعود إلى المنزل ساعة تشاء، وكل ما يلزمها هو الشجاعة.

قال ببرود: «لم يفكر مات يوماً بمخاطر الأمور».

ثم استدار إليها، وأجفلت لبرودة عينيه:

ـ ويبدو أنني أمشي على خطاه، فكلما طال بقاؤك هنا، عرفت أموراً أكثر عني. . وعن عائلتي.

ـ من الأفضل إذن أن تتركني أذهب في الحال.

ـ لا. . فابتداء من الأسبوع القادم لن يعود للأمر أهمية. . وستبقين حتى ذلك الوقت.

كانت لا تزال تغسل صحون الفطور حين رن جرس الباب.

فتح شاي الباب. . وعاد مع امرأة جذابة، في أواخر الثلاثينات من عمرها. . قدمها لها:

ـ هذه جين زوجة الطبيب. . وهذه صوفي.

سلّمت جين على صوفي بحرارة وقالت لها:

ـ سآخذ الأولاد في نزهة بعد الظهر قبل انتهاء العطلة المدرسية. . هل ترغبين بالانضمام إلينا أنت وتوم؟ أعرف أن شاي شديد الانشغال. .

ونظرت إليه بشيء من الحياء: «. . إنه عادة مشغول، لكن بما أنه لا يعمل اليوم، فهل خططت لشيء ما؟».

ورفعت حاجباً متسائلاً.

تجنبت صوفي نظرة شاي:

ـ لا. . لا شيء أبداً، سيسر توم باللعب مع أولاد آخرين. أين تفكرين باصطحابهم؟

ـ لا شيء مميز. . رحلة في المركب حول الميناء. . ثم مثلجات في «سليما».

تدخل شاي: «إذا كنت ترغبين برحلة في المركب فلماذا لا تدعيني ارافقكم؟ أنا واثق أننا سنجد مكاناً أكثر تسلية من الميناء».

استدارت جين إليه بدهشة:

ـ أوه. . شاي. . يحب الأولاد الجولة حول الميناء. . فضلاً عن ذلك قد تضجر من رفقة النساء والأولاد.

ـ هراء. . لا أستطيع التفكير بصحبة أكثر فتنة. ستعد لنا صوفي طعاماً للنزهة وسنذهب إلى كومينو، ونسبح في البحيرة. . ما رأيك يا صوفي؟

اختارت صوفي أن تتجاهل تعابير وجهه المتعجرفة التي تثير سخطها.

قالت موافقة:

ـ يبدو لي هذا مسلياً، لم تتح لي فرصة السباحة في البحيرة الزرقاء.

وابتسمت مضيفة: «كنت ألتقط الصور فحسب».

سألت جين باهتمام:

ـ وهل لديك كاميرا؟ هلا جلبتها لالتقاط صور للأولاد؟

كشرت قليلاً:

ـ لا أجيد التقاط الصور. . أقطع دائماً الأجزاء الهامة من اللقطات.

ـ كاميرا صوفي لا تعمل يا جين.

ـ أوه. . يا للأسف، لا يهم، سأجلب كاميرتي.

انتقلت صوفي بالحديث إلى الطعام وهي تعي نفاد صبر شاي.

ـ هل هناك شيء لا يحب أولادك أن يأكلوه؟

ـ القليل. .

وبعد مضي بضع دقائق من النقاش حول الترتيبات غادرت المنزل.

وحذرها شاي بعد أن عادت من توديع المرأة:

ـ إياك أن تفكري بالتقاط صور لي ولتوم.

ـ لقد تفلتت مني الأفكار المتذاكية، وإلا لما كنت هنا.

ـ ربما. . لكني سآخذ الأفلام لتظهيرها على سبيل الحذر.

ردت قائلة: «كما تشاء. . سترحب جين بالفكرة».

ثم أضافت بنبرة لاذعة:

ـ أرجو أن تحصل على حسم على هذه الكمية من الأفلام.

ولم تنتظر الرد، بل قامت تعد طعام النزهة.

كان شاي في المركب يوضب الطعام حين وصلت جين وأولادها بعد الساعة الثانية بقليل. ولم تكن لوحدها.

قالت: «صوفي. . هذا أخي سيزار، وصل بالطائرة هذا الصباح، فجئت به معي. . أرجو ألا تمانعي».

لم يكن شقيق جين صغيراً في السن، صحيح أنه لا يملك نضوج شاي لكنه يتمتع بطلة جميلة شأنه شأن الكثير من الشبان في إيطاليا. . وبدا واضحاً أنه يعي هذا، إذ تقدم على الفور ليأخذ يد صوفي بحنان بين يديه.

تمتم قائلاً: «صوفي. . يا له من اسم جميل».

حاولت صوفي أن تتمالك نفسها كي لا تطلق ضحكة ساخرة وقالت:

ـ بالطبع لا أمانع يا جين.

لكنها تساءلت في نفسها عما ستكون ردة فعل شاي على وجود الشاب. . نظرت جين حولها، وأضافت:

- فكرت أنه سيكون رفيقاً مسلياً لشاي.. أين هو؟

- في المركب، ومن الأفضل أن ننضم إليه.

قاد توم الطريق يقفز الدرجات نزولاً من الصخور المنحوتة إلى المرسى الصغير الممتد بمحاذاة الشاطىء.. ولحقت به جين تقود صغارها بيدها، وأصر سيزار على الإمساك بذراع صوفي ليساعدها على النزول.

لحقت نظرة شاي بهما على طول المرسى، وهو يساعد الأولاد على الصعود إلى المركب، وتمنت صوفي لو يتوقف سيزار عن معاملتها وكأنها قطعة ثمينة من الخزف الصيني.

رحب شاي بالشاب بشكل سريع:

- سيزار.. جيد أن أراك.. هل تعطيني الحبل؟

فترك يدها مكرهاً ويتقدم إلى مقدمة المركب.

لم يكن شاي قد أعطاها أي إشارة عن نوعية المركب الذي يمتلكه.. لكن، لو كان لصوفي الوقت للتساؤل، لافترضت أنه غالي الثمن مثل السيارة التي كان يقودها في الصباح، وليس هذا المركب العملي المربوط إلى جانب المرسى.. إنه مركب دورية بحرية قديم، بالكاد يمكن تصنيفه بين ألعاب الأثرياء.

سأل، وكأنه قرأ أفكارها بسهولة مغيظة: «ليس كما توقعت؟».

ردت بحدة: «على العكس.. إنه مركب سريع وخطير.. مثل صاحبه تماماً».

مد يده يساعدها، ولم يكن لديها خيار وهي تقفز إلا أن تميل إليه، لكن يده أطبقت حولها بسرعة وهي تحاول سحب أصابعها.

- أنا مسرور جداً لإدراكك هذا يا صوفي ناش.

وكان صوته هامساً بحيث لم يسمعه أحد غيرها:

- إياك أن تستخفي بي.. ولا تظني أنك وجدت لنفسك بطلاً.

واتجهت عيناه إلى الشاب الذي كان يمسك بالحبل على الرصيف بنفاد صبر.

رفعت حاجبيها قليلاً.. لم تفكر بسيزار كبطل.. والتقت نظراتهما:

- لن تخدعني عيناك الرماديتان البريئتان يا صوفي.. ولكنهما قد تخدعان سيزار، فهو لا يعرفك مثلي.

- أنت لا تعرفني.. يا شاي.

- دعي الحكم لي.

حافظ أولاد جين على هدوئهم خلال الرحلة، خوفاً من شاي.. لكن، ما إن انطلقوا للعب في الماء الدافىء الفيروزي اللون، حتى نسوا خوفهم وخجلهم.. وارتفع مستوى الأصوات بشكل درامي.

سبح الأولاد لفترة طويلة في المياه اللامعة.. وحين اكتفوا، سبحوا إلى الشاطىء، وأخرجت جين واقياً من الشمس تغطي به بشرة أولادها.. وراحت صوفي، تدعك كتفي توم بالسائل بالرغم من احتجاجاته المتذمرة.

حذرته صوفي: «كن هادئاً يا توم.. لا نريدك أن تحترق».

رد توم متجهماً:

- إنه لزج.. وأنت لم تضعي الكريم على ظهرك

ردت بحزم: «بالطبع فعلت».

ركع سيزار على ركبتيه إلى جانبها:

- هل تسمحين لي؟ بشرتك ناعمة جداً.. ويجب أن تحترسي من الحروق.

ولمحت نظرة شاي المحذرة وهي على وشك القول إنها غطت نفسها بالسائل قبل ترك المنزل.

قالت وهي تعطيه الزجاجة مبتسمة:

- شكراً لك يا سيزار.. أرجو منك أن تدلك ظهري.

ورفعت شعرها الثقيل المنسدل على كتفيها بشكل مغري.

ونادت جين عليهم.. فاغتنم توم الفرصة ليهرب ويلعب مع بقية الأولاد، ويتركها تعاني من اهتمام سيزار الحنون، أمام ناظري شاي

المتجهم الوجه.

تمتم سيزار وهو يدعك الكريم على ظهرها:

ـ رباط الكتفين يعيقني.

فقالت بسرعة: «لا بأس».

تدخل شاي، قائلاً:

ـ هراء.. يجب أن تحمي بشرتك بشكل لائق.. أعطني هذا.

وتردد سيزار لحظة، ثم ناوله السائل الواقي على مضض..

ـ أختك تحتاج للمساعدة.

فاستدار سيزار مبتعداً، وأحست صوفي بالأسى عليه.

قالت توبخ شاي: «لم تكن لطيفاً معه».

ـ ولا أنت أيضاً.

وشهقت حين بدأت أصابعه الطويلة المثيرة تمسح الكريم البارد على مؤخرة عنقها.

أطبقت عينيها بشدة، وحاولت جاهدة أن تتمالك نفسها.. ثم شقت راحة يده طريقها إلى كتفيها، قبل أن تنزلق إلى ظهرها لتغطي بشرتها الدافئة بالكريم.. فلم تعد تقوى على كبح تنهيدة ناعمة انطلقت من صدرها.

قال: «جاء دوري الآن».

حملقت به مذهولة وقالت: «لا أظنك تحتاج إلى واق من الشمس.. لأنك شديد السمرة».

ذكرها بنعومة: «الاهمال مضر».

أمسك المرهم بيده وعصر القليل منه في راحة يدها.

ـ الكتفين أولاً.. أليس كذلك؟ أحسني تدليكهما.. أريد أن يتأكد سيزار أنك لن تكوني متوفرة له.

وأدار لها ظهره القوي العضلات، والمستقيم.. وراح ينتظر. أرادت أن تلمسه، تدلكه، تمرر راحتها فوق بشرته.. ولكنها كانت غاضبة، فرفع

رأسه وقال لها: «قد تحترق بشرتي وأنت تفكرين بالأمر».

ـ وهل هذا صحيح؟

وضعت الكريم على ظهره بقوة، جعلته يجفل، وأخذت تدلك بقسوة في كل الاتجاهات.. مصممة أن لا تترك عقلها يعي ما تفعله يداها، أو تشعران به وهما تتلاعبان ببشرته الدافئة، وما لبثت يداها أن تحولت إلى مداعبة لطيفة على بشرته الناعمة كالحرير، وسألت:

ـ أيمكن أن أضع المزيد من الكريم؟

ثم رفعت رأسها، لتجد نفسها تحت رقابة متشددة.. وقال:

ـ أعتقد أنك نلت ما فيه الكفاية!

ووقف على قدميه، يرمي الزجاجة جانباً، ويتجه إلى الماء.. فوقفت غاضبة، تنظر إليه وهو يغوص في البحيرة.. ثم فهمت كلامه.. وأصيبت بالذعر لفقدانها السيطرة على نفسها.. نظرت حولها، تتوقع أن تكون هدفاً لصف من العيون السوداء المتهمة.

* * *

٨ ـ رحيل في منتصف الليل

وجدت الشاطىء مهجوراً. . قفزت صوفي على قدميها مذعورة. . أين اختفى الجميع بحق السماء؟ ثم لمحت جين وسيزار، حاملين قرون المثلجات وهما يتقدمان إلى الخليج الصغير تلحق بهم حفنة من الأولاد المتشوقين.

سارعت لتساعدها، قائلة:

ـ آسفة يا جين، كنت سأجيء معك لو قلت. .

قالت: «كنت مشغولة، وساعدني سيزار».

وبدأت توزع قرون المثلجات على الأولاد وهي تحذرهم من إيقاعها على الرمال، ونظرت إلى الذي يسبح في الماء.

ـ هل بإمكانك أن تأكلي منها أيضاً؟ أخشى أن حصة شاي قد تتحول إلى سائل إلى أن. .

ونظرت إلى صوفي ببراءة: «يخرج من الماء».

كما وعدت، جلبت جين كاميرتها مع فيلمين. . فالتقطت صوفي عدداً من الصور للأولاد وهم يسبحون في الماء ويلعبون لعبة نظمها لهم شاي، وبقي سيزار بعيداً. . مكتفياً بنظرات طويلة وحارة.

راحت صوفي تلتقط الصور وهم يرتشفون الشاي لاستنفاذ اللفافة الثانية. واستدار توم نحو شاي يقدم له تفاحة. مال هذا الأخير إلى الصورة وهي تركز على الصبي. فبدا المنظر طبيعياً ساحراً، بحيث إنها التقطته بطريقة عفوية. . لكنه لم ينس تحذيره، فسارع يأخذ الفيلمين بعد

نفاذهما.

قالت جين بحزم، وهي تخطفهما من يده:

ـ أعطهما لي. . سأذهب إلى البلدة غداً. . ولن يلزم أكثر من يوم واحد لتظهيرها. . وسأحضر لك نسخاً عن أي صورة تريد.

تردد شاي للحظة، لكنه لم يعترض، بل هز كتفيه ببساطة.

ـ لا بأس. . احضريها معك يوم السبت إلى الحفلة. . وسنلقي نظرة عليها.

سألت: «كيف تسير التحضيرات؟».

اعترفت صوفي:

ـ لم أبدأ بعد. . سأصنع الكيك غداً.

ابتسمت جين تعاطفاً، وقالت:

ـ هل آخذ توم معي إلى المنزل؟ يمكنه أن يقضي اليوم معنا حتى تتاح لك الفرصة لإنهاء التحضيرات، ويمكنك أن تأتي في المساء لاصطحابه وتناول العشاء معنا.

قالت صوفي: «أعرف أنه سيحب هذا».

لكنها كانت تشك في أن يسمح شاي بأن يبتعد.

إلا أنها كانت مخطئة، فقد قال:

ـ إنها فكرة جيدة، إن لم يكن لديك مانع يا جين؟

ضحكت: «لن ألاحظ وجود ولد آخر، ويمكن أن يساعدني سيزار. . كما وأن بول في إجازة غداً. لديه نهاية أسبوع طويلة. .».

ـ اطلبي لو سمحت أن يساعدني يوم السبت، فلديه خبرة أكبر بالتعامل مع الأولاد.

ـ وكم تتوقع أن يكون عددهم؟

ـ مئات.

قالت صوفي: «ستة عشر. . تلاميذ الصف كلهم، وأولادك بالطبع».

وعدت جين: «سنأتي إذن باكراً لمساعدتكما».

سألت صوفي مصممة على إزعاج شاي:

ـ ألن يأتي سيزار معك؟

وأشرقت عينا الشاب لهذا التشجيع، لكنه تمتم:

ـ يجب أن أعود إلى العمل ليلة السبت. . لكن ربما العشاء هذا المساء. . ؟

هزت رأسها بسرعة، آملة ألا يكون شاي قد سمعه.

بعد انصراف الجميع، بدا المكان هادئاً جداً. . وهذا ما جعل صوفي متوترة. . صحيح أن توم لم يكن رفيقاً مناسباً لها، لكنها كانت تشعر بأمان أكبر خلال وجوده. .

قال شاي: «سأعيد المركب إلى الميناء وأعود بسيارتي، ومن الأفضل أن تأتي معي».

ـ ما هذا؟ إطلاق سراح مؤقت؟

ـ سأشعر بأمان أكثر وأنت تحت ناظري. . لن أسمح لك بالتأكيد بلقاء غرامي مع سيزار.

ـ أنا لم. . .

أشار بيده يسكتها: «لقد رأيتكما تتهامسان قبل أن ينصرف. ماذا رتبتما؟».

ـ لا شيء!

ـ لا؟ أنت متوترة جداً.

ـ لطف منك أن تلاحظ هذا، وكم من المؤسف أن لا تكون دقيقاً جداً حول الأسباب.

فقال عابساً: «لا يهم. . سيجد سيزار عذراً ليعود».

نظرت إليه: «يجب أن أحضر العشاء».

رد بحدة:

ـ ستتعشى في الخارج. . هل يمكن أن تكوني جاهزة بعد نصف ساعة. . ؟

ومد لها يده قبل أن تحتج:

ـ أعتذر. . لقد نسيت أنك قادرة على الاستعداد لأي شيء في غضون خمس دقائق.

ـ لكن ليس مرتين في يوم واحد.

واتجهت غاضبة إلى غرفتها لتأخذ حماماً بارداً وتستعيد سيطرتها على نفسها. . اعترفت وهي تجفف نفسها أن لمسة رجل واحد لها توهج جسمها، أكثر من تأثير أشعة الشمس والرذاذ المائي المشابه لوخز الأبر.

كم سيكون نيغل مسروراً لو عرف أن خطته الخبيثة تسير على أحسن وجه. . وأسقمتها الفكرة. إذ منذ أن استيقظت من الكابوس وهي بين ذراعيه، لم تعد الأمور على حالها. . ولكن إن قضت الليلة مع شاي بوكانن ستحطم فؤادها.

هزت رأسها، وأدركت مصدومة كيف أن الوقت يمر بسرعة.

فارتدت ملابسها وركضت نزولاً على السلم. . ولكنها توقفت مسمرة قبل درجتين وهي ترى أنه كان ينتظرها، وهو ينظر إلى الفضاء، يداه في جيبي سرواله. استدار حين سمعها تنزل، ونظر إليها للحظة واحدة، وكم كان سرورها عظيماً وهي تلمح اتساع عينيه، اللتين أكدتا لها أن الجهد الذي قامت به كان يستحق العناء.

كانت قد وضعت القليل من التبرج على بشرتها التي تحولت إلى اللون الذهبي إثر تعرضها للشمس خلال الأيام الماضية. . وزاد من اتساع عينيها لمسة ظلال، وبدا ثغرها ممتلئاً وقد لونته بأحمر شفاه زهري لماع، يشابه لونه لون فستانها الصيفي، أما شعرها فربطته إلى الوراء، بشال صغير، وتركت سترة خفيفة تتدلى من إحدى يديها.

لكن تعبير وجهه تبدل فوراً. . وقال:

ـ بالكاد نجحت.

ولم يعلق على مظهرها.

لم تكن بحاجة إلى الكلمات. . فقد رأت عينيه. . في طريقهما إلى

المرسى، تذكرت العناق العنيف الذي لم يكن أي منهما يريده.. ولم يستطع أي منهما مقاومته.

قفز شاي إلى المركب، ثم استدار لينزلها، فأمسك بها لحظة وهي معلقة بين ذراعيه.. وأحست صوفي بجفاف في حلقها، وهي معرضة لشتى أنواع المخاطر أمام جاذبية هذا الرجل.. لا بد أنه يعرف.. ويشعر بالخفقان المجنون لنبضها وهو يمسك بها.

كانت تذوب بين يديه ذوباناً لا يحتمله عقله.. وتراءت لها في تلك اللحظة ابتسامة نيغل الخبيثة، هذا ما يريده تماماً.. وسيطلب فيما بعد فصلاً، ثم رواية شعرية.. ابتعدت عنه وتراجعت خطوة إلى الوراء.. وقالت بسرعة:

ـ أعتقد أنني سأبقى على السطح هنا لفترة.

اعترض: «سيزداد الهواء برودة عندما ننطلق».

وأخذ ذراعها ليدخلها إلى غرفة القيادة.

قطعا المسافة إلى «سليما» بسرعة تقطع الأنفاس.. بينما كان شاي يشرح لها عن الرادار والراديو بدقة بالغة وجدت صعوبة أكبر في السيطرة على مشاعرها.. وراحت عيناها تنتقلان باستمرار من الآلات إلى وجهه وهي تجلس على مقعد خشبي مرتفع إلى جانبه.

واستدار نحوها وقال بغضب: «أنت لا تصغين إلي».

ـ أنا.. آسفة.

ـ إن استمريت بالنظر إلي بهذه الطريقة ستشعرين بأسف أكبر.

توسلت بعينين متسعتين: «شاي!».

قلدها: «صوفي!».

نزلت عن المقعد لتتنفس ملء رئتيها من الهواء النقي.. ولكنه لم يبد استعداداً لتجاهل الموضوع.

قال: «أتريدين مناقشة الأمر؟».

ونزلا إلى الشاطىء. يمران بصف طويل من اليخوت الجميلة الغالية

الثمن.

ـ لست أفهم.

ـ بلى.. تفهمين. لا أظنك غبية، فأنت ترسلين إشارات لا يمكن الخطأ فيها..

تصاعدت الدماء إلى وجنتيها، ولكنها لم تستطع الإنكار، وقالت: «لم أقصد إزعاجك.. حقاً..».

وازدادت حمرة خديها:

ـ.. لست عادة.. سريعة التأثر.. وأخشى أنك السبب.. يا شاي.

وكان اعترافاً مؤلماً.

وصلا إلى السيارة، ولم يتفوه بكلمة وهو يفتح الباب ويساعدها على الدخول.. كانت الشمس قد غابت وحل الظلام.. لكن الجو كان خانقاً في السيارة.

استدار نحوها قائلاً: «ولكنك مترددة دوماً».

ـ وهل تتوقع مني أن أقع في فراشك؟

اشتد ضغطه على فكيه: «وهل طلبت منك ذلك؟».

هل المسألة بهذه السهولة بالنسبة له؟

ـ ألن تعارض بوباي؟

ـ بوباي؟

ـ كانت الساعة الثالثة حين عدت ليلة أمس.

لمعت عيناه في الظلام: «حقاً؟».

ـ حسناً.. لم تكن في الفراش..

ـ كلا.. لم..

مد يده وأدار المحرك، وانطلق بسيارته السوداء الأنيقة نحو البلدة، التي فتحت محالها أبوابها لفترة المساء، فعجت شوارعها بالناس الذين خرجوا للتمتع بالسير على طول المنتزه.

قالت فجأة، وقد أراحها أن تجد شيئاً ما تقوله، لكسر الصمت

المرتبك.

ـ شاي. . هل يمكن أن تأخذني إلى محل ألعاب؟

نظر إليها بسخط: «محل ألعاب؟».

ـ أريد شراء هدية لتوم.

ـ لست مضطرة لذلك. . .

ـ إنه لمن دواعي سروري. . لكن. .

وعضت على شفتها.

ـ لكن؟

ـ أخشى أنك مضطر لإقراضي المال، إلى أن تعيد إليّ حقيبتي.

اكفهر وجهه. . واستدار ليدخل البلدة، ويقف حائراً أمام أحد المحلات، فاختارت لتوم مسدسين يطلقان الشرار موضوعين في جراب.

سألته: «ما رأيك؟».

ـ أعتقد. . أنه سيحبهما.

نظر حوله: «لقد تركت تيريسا بعض المال ليختار توم شيئاً لنفسه. . وأعتقد أنني سأشتري له قبعة رعاة البقر لتتماشى مع المسدسين».

ـ وماذا اشتريت أنت له؟

ـ كان يحتاج إلى سرج جديد لميلي.

ـ أوه.

وقفت على حدة، تنتظره ليدفع ثمن ما اشترته.

استدار نحوها وقال: «ماذا؟».

ولحق بنظرها إلى الواجهة، حيث علق ثوب «الكاوبوي».

وإذا بها تلتفت إلى البائعة وتقول: «سآخذ هذا كذلك».

قالت وهي تضع اللفافة في السيارة: «شكراً لك».

رفع رأسه لينظر إليها من فوق سطح السيارة:

ـ حسناً. . أظن أن ابني على وشك تحقيق أكثر أحلامه جنوناً. . فهلا بذلت جهداً لتحقيق بعض أحلامي؟

افتر ثغره عن ابتسامة صغيرة وقد احمر خداها خجلاً، وتمتم:

ـ ما رأيك بتناول العشاء معي؟

مغمورة بالارتباك، غاصت في السيارة مرتبكة، وسألته:

ـ إلى أين ستصطحبني؟

ـ إلى الباراكودا. . على خليج سانت جوليان.

ـ أوه. . أجل. . أعرفه.

ـ وهل قصدته من قبل؟

هزت رأسها نفياً، ولو أنها كانت تمر بقربه دوماً. .

أوقفا السيارة على مقربة من المطعم، وأمسك شاي يدها يساعدها على الخروج من السيارة، وأبقاها في يده.

كان المطعم جاثماً عند الزاوية، معلق فوق الميناء، له درجات تصل مباشرة إلى البحر، وكأنه مركز للمهربين.

ـ إنه في غاية الجمال.

كان الجو دافئاً وحميماً، ووحده وهج الشموع المضاءة على الطاولات الصغيرة ينير المكان.

ـ كأسان من العصير يا جورج. . لو سمحت. . وطاولة تطل على الميناء.

رافقهما جورج إلى طاولة تقع قرب النافذة، وأحضر كوبي العصير ولائحة طعام. . ووقف قربهما منتظراً أن يختارا الطعام. . وارتشفت صوفي العصير تنظر إلى أنوار السفن في الأفق، تاركة لشاي حرية الخيار. . وسألها:

ـ ألديك حساسية ضد ثمار البحر يا صوفي؟

هزت رأسها نفياً فطلب طبقين لهما.

انتابها إحساس غريب. . لعلها تعرضت للشمس لساعات طويلة. . لكنها لا تعتقد ذلك. .

أخذ يدير كأسه بين أصابعه، وقال:

- حدثيني عن عائلتك، لقد أخبرتني عن جيني لكن ماذا عن والديك؟

- يعلم والدي فنون الرسم في مدرسة كبيرة تقع على بعد بضعة أميال من منزلنا، بينما تعمل أمي سكرتيرة.

- ليس لديك حبيب؟

- كلا.

قال بحدة: «حقاً؟ وماذا عن الصحافي الذي أردت تصويري لصالحه؟ ظننتك قلت إنه مميز بالنسبة إليك».

تذكرت كلامها الغاضب في أول ليلة من أسرها.

- نيغل هو..

فجأة، شعرت برغبة بقول الحقيقة كلها.. ولكن، إن أخبرته ما حدث بالضبط يوم جاء نيغل إلى البرج، لن يصدق أبداً أنها لا تحيك له شيئاً خسيساً.. ولن تلومه.

- لا أستطيع أن أشرح لك.

- لا داعي لذلك يا صوفي.. لا أحب التدخل في شؤون الغير.

احتجت: «لا..».

لكنه أبعد عينيه عنها واستدار نحو جورج الذي وصل حاملاً أطباق القريدس الضخم المطهو داخل قشرته.

وما فائدة الاحتجاج؟ لن تستطيع أن تبرر نفسها، حاولت أن تركز اهتمامها على تناول طعامها، لعله من الأفضل أن يظن أن في حياتها شخصاً آخر.. فهذا أكثر أماناً.

أخيراً قالت: «القريدس لذيذ جداً».

- وهل انتهيت؟

نظرت مذهولة إلى طبقها المليء بقشر القريدس.. بالكاد لاحظت أنها كانت تأكل: «أجل.. شكراً لك».

أشار إلى جورج لينظف الطاولة.. ثم قال بلهجة قاسية:

- حسناً.. هلا قلت لي ماذا سيحدث غداً؟

وأمضيا بقية الوقت يتناقشان حول ترتيبات حفلة توم.

خلال طريق العودة إلى المنزل، ساد صمت رهيب بينهما، لم يعكره سوى صوت سيناترا المتصاعد من جهاز الراديو..

عند وصولهما إلى المنزل، أوقف السيارة خارج البرج، وفتح الباب لها.

- سأركن السيارة في المرآب.

- هل تريد القهوة؟

هز رأسه نفياً: «لا.. شكراً».

ولم يشجعها صوته على البقاء.

- إذن.. أراك في الصباح.

لكنها لم تشأ أن تخلد للنوم بهذه السرعة.. شعرت أن النوم لن يعرف طريقه إلى عينيها. كانت لا تزال جالسة أمام طاولة الزينة، تمشط شعرها، حين سمعت قرعاً خفيفاً على الباب

جاء صوت شاي مخنوقاً عبر الخشب السميك: «صوفي؟».

نادت: «لحظة واحدة».

وأسرعت ترتدي عباءة خفيفة قبل أن تدير المفتاح في القفل، وتفتح الباب.

سأل: «هل تقفلين الباب لمنعي من الدخول أو لمنع نفسك من الخروج؟».

ولم تكن تعرف ما الذي دفعها إلى إدارة المفتاح في القفل.

سألت: «ماذا تريد؟».

فناولها حقيبة الكاميرا وقال: «أريدك أن ترحلي الآن».

نظرت باستغراب إلى الحقيبة.. ورفعت عينيها إليه.

- أرحل؟ أهذا كل شيء؟

- أليس كافياً؟

- لا.. ليس كافياً.. لقد احتجزتني هنا لأيام ضد إرادتي، ولا

يمكنك أن ترميني خارجاً في منتصف الليل دون اعتذار؟

ازداد سواد عينيه حدة.. وخطا خطوة إلى الأمام، وسأل: «اعتذار؟ عما؟».

أمضت الساعتين الأخيرتين وهي تحاول التصرف بلباقة وتهذيب.. وها هي تستعيد طبعها الحاد.

قالت: «أعطني نصف ساعة، وسأعد لك لائحة».

ـ لا تزعجي نفسك.

ـ إنه لمن دواعي سروري!

وقفا للحظة، يحدقان ببعضهما البعض وأنفاسهما متقطعة.

ـ من الأفضل، أن توضبي أغراضك وترحلي قبل أن أبدل رأيي.

واستدار مبتعداً عنها.

سألت وهي لا تصدق ما تسمعه: «الآن؟».

استدار نحوها، وأمسك ذراعها بيده وقال:

ـ اللعنة عليك يا صوفي.. أنت تلعبين بالنار.

نظرت إلى يده، ثم رفعت عينيها لتنظر إليه «حقاً»

وكان السؤال منمقاً. فهي تعرف إنها تلعب بالنار. لكنها لم تستطع منع نفسها.

ـ يسرني أنك منحتني حريتي.. ولكن الوقت متأخر قليلاً ولا أستطيع الرحيل الآن.

ـ ستجدين فنادق كثيرة.

ـ العشرات منها! ولكن إن أردتني أن أرحل في الحال، عليك أن تعيد لي حقيبة ملابسي أيضاً!

فصرخ في وجهها وقد عيل صبره.

ـ لتحضرها إذن، لا أريد أن أؤخرك.

أمسك يدها يجرها خلفه، صعوداً على السلم إلى الطابق العلوي، ثم مد يده إلى فوق حافة الباب وجلب المفتاح.

قالت مذهولة: «وضعت المفتاح هنا!».

ـ وهل توقعت أن أتركه في مكان آخر بعد اعترافك لي بتفتيش أدراجي؟

ـ بحثت عنه أولاً هنا.

كان الطابق العلوي يتألف من غرفة واحدة فخمة.. وكأنها مرسم فنان، يعمل وينام فيه.. إلا أنه ترك على حاله منذ آخر مرة استخدم فيها.. قماش صورة فتاة غير منجزة، معلقة على الحاملة.. وفراشي وألوان مكومة كيفما اتفق على طاولة عمل.. وقال: «هذه غرفة مات».

التقطت صوراً لماريا من بين الأوراق.

ـ أقفل الباب بالمفتاح حتى لا يقترب توم من المكان.. منذ بضعة أشهر، كسر زجاج صورة والدته وجرح نفسه.

ـ فهمت.

وأعادت الإطار إلى مكانه بحذر: «هل ستخبره يوماً؟».

نظر إليها بحذر سائلاً: «أقول له ماذا؟».

رفعت ذقنها قليلاً.

ـ أن والده هو مات؟

قال ببطء: «عرفت هذا الصباح.. أليس كذلك؟ حين كنا نركب الخيل؟ لمحت تعبيراً على وجهك أكد لي حينها أنني تماديت في الكلام».

ـ لم أكتشف الأمر بالصدفة.. ولكن التواريخ لم تكن متناسبة.. إذ أنك لم تصل إلى مالطا قبل أواخر تشرين الأول.. بينما ولد توم في نيسان.

ـ لعله ولد قبل أوانه.

ـ لا أظنك دفنت شقيقك.. وواسيت أمك.. وأسرعت في العودة، لتغازل ماريا وتتودد إليها، وتنجب ابناً في سبعة أشهر؟ فالضغط الذي وقعت تحت تأثيره كان أقوى من أن يسمح لك بالقيام بذلك.

ـ ألا تعتقدين أن ماريا كانت تشكل جزءاً رئيسياً من حياتي؟

سألت: «لا أظن ذلك. لأنك ابتعدت عن الجزيرة أربع سنوات متتالية».

عادت تحدق في صورة ماريا، التي بدت وكأنها لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها.

ـ أعتقد أن ماريا كانت لا تزال في المدرسة يومها.

ـ وهل أخبرتك كل هذا؟

لم ترد..

نظرت إليه: «لن أفضح أمرك أبداً يا شاي.. حتى وإن كنت لا تصدق ذلك..».

قال بحذر: «لا أظنك تقدمين على تصرف يسيء إلى توم».

ـ لن أفعل شيئاً يسيء إلى أي منكما!

ثم أدركت مجفلة أنها كانت تعني ما تقوله.. مهما كلفها ذلك.

وقف ينظر إليها للحظات.. ثم هز رأسه، وكأنه صدق كل كلمة صدرت عنها:

ـ تعرفين الكثير.. ومن الأفضل أن أخبرك كل شيء.

رمى كومة أوراق عن الكنبة ليتمكنا من الجلوس، ثم نظر حوله فقال: «علي أن أنظف المكان».

ـ نعم.

كانت والدتها قد حولت غرفة جيني إلى مزار لها.

ـ لكن، مما قلته لي عن مات، أعتقد أنه سيجد هذا..

ـ سخيفاً؟ أنت محقة.. وكان ليضحك ملء فمه لفكرة أن أحدهم يأخذه على محمل الجد.

وجلس إلى جانبها.

ـ لم يأخذ شيئاً على محمل الجد.

ـ ولا حتى ماريا؟ ألم تكن هي سره الدفين؟

ـ أنت تتذكرين كل شيء.. أليس كذلك؟

ـ كل شيء.

كل شيء له صلة بشاي بوكانن.. وهي على ثقة أنها ستتذكر هذا الأسبوع بقية أيام عمرها.

ـ بعد الجنازة، عدت إلى هنا لألملم أغراضه. كنت أنوي التخلي عن البرج، ونسيان ما حدث.. لكن عند عودتي، وصلت ماريا، مذهولة، إلى باب المنزل.. وأخبرتني القصة كاملة.

تذكرت صوفي اهتمامه بأمر جيني.

ـ هل طردتها عائلتها؟

ـ أوه.. لا.. على العكس. لقد هربت من المنزل، ونزلت على أنبوب ماء، ولا بد أنها تدربت على ذلك جيداً خلال علاقتها مع مات. إذ كانت مخطوبة إلى رجل آخر اختارته عائلتها لها.

تجهم وجهه مرة أخرى:

ـ وأمام العار الذي ألحقته بأفراد عائلتها، قرروا إبقاءها بعيدة عن الأنظار إلى أن تلد الطفل.. على أن يرسلوها لاحقاً إلى الدير.

ـ شاهدت الدير من الخارج.

جدرانه كالحة وقضبانه حديدية، وقال لها الدليل إن الراهبات لا يغادرن الدير إلا محمولات على الأكتاف.

قالت له: «وسمحت لها بالبقاء».

ـ أجل.. ولكن هذا لم يكن كافياً.. إذ ظنت ماريا أنني سأحميها..

لكن الأمر لم يكن سهلاً.. فقد جاء أخوتها إلى البيت بعد ساعة، يطالبون بتسليمها لهم.

وتابع كلامه قائلاً: «لن أنسى يوماً تلك المواجهة.. قلت لهم إن الطفل الذي تحمله هو ابني، وإننا سنتزوج.. ولا أعتقد أنهم صدقوني.. لكنهم أعطوني أسبوعاً، لنتزوج وإلا سيعودون».

ـ اسبوع فقط.

ـ كنت أخشى أن يعودوا ليلاً ويحاولوا أخذها بالقوة، وبما أنها لا

تحمل جواز سفر لن أستطيع إخراجها من البلاد، لذلك تزوجنا خلال ثلاثة أيام على يد المفوض البريطاني. كان زواجنا الطريقة الوحيدة للتأكد من أن ولد ماريا لن يختفي أو تتبناه عائلة مجهولة.

وأضاف قائلاً: «إنه من عائلة بوكانن.. وله الحق بكل ما يملكه مات. حين ولد توم أحسست وكأني استعدت قطعة من أخي».

ونظر إليها.

ـ أحسست بنوع من الغفران.

***

٩ ـ نار التجربة

ـ أولم تخبر أحداً؟

هز شاي رأسه نفياً: «كان عليّ أن أخبر أمي.. لكن كان نفوذ عائلة ماريا حال دون وصول اسم العائلة إلى وسائل الاعلام.. لذا لم تلتقط الصحافة الإنكليزية الخبر.. أتفهمين؟ لم أستطع المخاطرة بأن يأخذوا مني توم.. لكن ما أن دوّن إسمي على شهادة ميلاده، حتى أحسست أنه لي...».

أمسكت يده بين يديها وقالت: «أجل.. أفهم.. حقاً».

لكن قلبها انفطر على ماريا، تلك الفتاة الصغيرة التي تزوجت رجلاً غريباً لتحمي ولدها.

سألت: «لماذا بقيت هنا؟ ظننت أنك...».

ـ أتحسبين أني لم أرغب في الرحيل.. لم أشأ أن تطأ قدماي هذا المكان مرة أخرى. لكن ماريا رفضت أن تسافر. كانت تقيم هنا، في غرفة مات، ليل نهار.. فشغلت نفسي في بحث حول كتابي التالي، وأملت أن أنتهي منه مع مولد الطفل.

بعد ولادة توم، اضطررت إلى الذهاب إلى لندن لإطلاق كتاب أنهيته في العام الذي سبق. وكان الناشر قد نظم لي مجموعة من الأحاديث والمقابلات.. والحق يقال إني كنت آخر شخص في العالم ترغب ماريا أن تراه حولها.. فعلى الرغم من أنني ومات لم نكن توأمين، مثلك ومثل جيني. إلا أننا متشابهان إلى حد بعيد، وأظنها وجدت صعوبة في التأقلم

مع هذا الوضع . . وكنت آمل أن تستعيد حيويتها بعد رحيلي، وتهتم قليلاً بالطفل . .

أطلق زفرة طويلة وتابع قائلاً: «جاءت تيريسا قبل بضعة أشهر من ولادة توم. واعتنت بماريا كابنة لها . . ووعدني بول بإبقاء عينه ساهرة عليها . . واعتقدت أنها ستكون على ما يرام».

ـ وهل يعرف بول؟

ـ من الصعب إخفاء أمر مماثل عن الطبيب . . كما وأنه كان يعرف مات .

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

استقام على كرسيه ونظر إلى السقف .

ـ ظهرت صور لي في الصحف .

وأغمض عينيه: «لم أعلم بوباي بزواجي. خوفاً من أن تستخدم . . . الزفاف للمزيد من الإثارة. ولم أكن في موقف يسمح لي بإظهار العروس المحمرة خجلاً. وفي أحد الأيام ظهرت في الصحف صور لي، وفتاة متعلقة بذراعي، رأتها ماريا وعائلتها».

ـ لكن بالتأكيد، بول . . .

ـ لو عرف بول ما كان يحدث، لتمكن من المساعدة. لكن والدة جين كانت مريضة، وأسرعت إلى فلورنسا لتبقى إلى جانبها.

صمت متألماً: «ابتلعت ماريا كمية من الدواء، ليس بقصد الانتحار . بل لإطلاق صرخة إغاثة . . إلا أن أحداً لم يسمعها».

ـ أوه شاي . . هذا مؤسف حقاً .

ـ مرت بضعة أيام قبل أن تلاحظ تيريسا أن ثمة خطب ما إذ أخذت الأعراض وقتاً أطول بكثر من تأثير الحبوب المنومة . . لكنها كانت مميتة . . فعدت على الفور . . لكن بعد فوات الأوان. وطلبت مني على فراش الموت أن أحتفظ بالبرج . . منزل مات. أرادت أن يعرف توم أنه مالطي، وأن يتعلم لغتها، كما وتمنت عليّ التقرب من عائلتها من أجل

الصبي . .

وماتت الكلمات على شفتيه . . وهو يستدير نحوها، فأخذته بين ذراعيها، وضمته إليها، وبللت قميصه بدموعها .

مر وقت طويل قبل أن يبعدها عنه .

ـ صوفي . .

ـ لا بأس يا شاي . . لن أخون ثقتك بي مطلقاً مهما حصل .

أمسكت رأسه بين يديها: «صدقني!» .

أسرت عيناه عينيها:

ـ هذا هو سبب احتجازي لك . . كان العار يقض مضجع عائلة ماريا وحاولوا بشتى الطرق إرغامي على مغادرة الجزيرة مع الصبي .

ـ يا إلهي . . وماذا فعلوا؟

ـ كنت قادراً على المواجهة .

لكن وجهه تقلص للذكرى :

ـ إنه حفيدهم . . ومن أجل ماريا صممت على ألا أسمح بتجاهله أو نسيانه . . فكنت أصطحبه إلى الكنيسة كل يوم أحد مع أنني كنت أعلم أنهم يحضرون القداس أيضاً . . وعرفت، منذ اللحظة الأولى التي رأيت فيها والدة ماريا، أنني كسبت صديقاً . وجاءت تيريسا برسالة منها، طلبت مني أن أتحلى بالصبر والهدوء .

ـ وتخليت عن الكتابة . . وأصبحت رجل أعمال محترم .

ـ حاولت التخلي عن الكتابة . . لكنني سرعان ما أدركت أن هذا مستحيل . . وكنت في منتصف الطريق لتأهيل نفسي كمهندس معماري حين نشر لي أول كتاب . كانت الصناعة السياحية تزدهر . . وبدا لي أن تنمية الأراضي هو الخيار الأنسب . . وفي كل مرة يرى فيها والد ماريا شعار شركتي، كان يزداد ثقة من أني لن أرحل .

ـ ولوحاتك منتشرة في كل مكان .

ـ حقاً؟

ـ وجدت بطاقة عمل. حين ذكرت پوپاي عملك...

ـ لا يهم. تعرفين كل شيء.

ـ ليس تماماً. ماذا سيحدث يوم الأحد؟ قلت أن الأمر لن يهم بعد يوم الأحد.

ـ لأن والد ماريا وافق أخيراً، وبعد تعرضه لنوبة قلبية حادة أن يستقبل حفيده يوم الأحد.

وأضاف: «وظهرت أنت وحاولت أن تعرقلي الأمور، تهددين بكل أنواع الأذى والتعطيل. ولم يكن بوسعي المجازفة. ولكن الأمر لم يعد مهماً الآن».

ـ لقد ضحيت كثيراً..

ـ كلا.. فقد قطعت وعداً لماريا.. وسأفعل ما فعلته مرة أخرى، ومضاعفاً، لو أنه ضروري.

ـ شكراً لك لإخباري.. ثقتك.. هدية غالية.

تقدمت صوفي منه وطبعت قبلة على خده فتسمر للحظة في مكانه، ثم أخذها بين ذراعيه يعانقها.. بحنان ورقة لم تشعر بهما من قبل، فاستجابت صوفي من دون تحفظ، والبهجة تملأ قلبها.

تمتم: «صوفي..».

كانت أنفاسه تحرق رموشها، وذراعاها ملتفتان حول عنقه تشدانه إليها، فأحكم قبضته عليها في لحظة محمومة وجذبها إليه بقوة حتى ذابت حباً في أحضانه.

ثم، ومن دون إنذار، أبعدها عنه، متجاهلاً صيحة الحسرة التي صدرت عنها عفوياً.. وراح يحدق بها من بعيد.

وقال: «اذهبي إلى النوم يا صوفي.. الآن».

ـ شاي..؟

وارتجف صوتها وقد صدمت من صده لها.. لكن ظهره بقي مستديراً بحزم إليها.. واستدارت تتعثر وهي تنزل السلم.

في الصباح التالي، كانت صوفي تستعد لتحضير قالب حلوى حفلة توم حين رن جرس الباب.

ابتسمت پوپاي: «صوفي».

ودخلت من دون دعوة، فقالت لها صوفي: «شاي ليس هنا».

لم تجد لشاي أثراً حين تسللت يائسة من سريرها ذلك الصباح. وساد صمت قصير بينهما.

ـ أعرف ذلك.

وأطلقت پوپاي ضحكة صغيرة مزعجة لا بد أنها تمرنت عليها ساعات طويلة وقالت: «لقد.. تركته لتوي».

وغلفت كلماتها بمعاني خفية جعلت الدم يتصاعد إلى خدي صوفي.. لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة.. ولا يعقل أن يكون شاي قد غادر باكراً، هذا الصباح.. لا بد أنه غادر المنزل في ساعة متأخرة من الليل.

ـ جئت لآخذ مخطوطة كتابه.

ونظرت إلى صوفي وأضافت.

ـ أعرف مكانها.. ولن تدعيني أؤخرك عن عملك.

استدارت صوفي عائدة إلى المطبخ.. الأمر لا يعنيها.. فإن كان يريد إقامة علاقة مع پوپاي أو ينشر كتاباً جديداً له فهذا من شأنه.

لكنها شعرت ليلة أمس أنه لا ينبغي أن يحتضن أحداً سواها بين ذراعيه.. وكسرت البيض في الوعاء، وبدأت تخفقه بحدة.

قفزت مجفلة بعد قليل، بعد أن صفقت پوپاي الباب وراءها.. ثم انكبت على العمل، غير قادرة على تمالك أعصابها.. فأطلقت العنان لدموع الأسى.

بعد وقت قليل استعادت رباطة جأشها، وعادت تكمل عملها، فأحست بوجود شاي في المطبخ.. لم تسمعه يدخل والخلاط الكهربائي يعمل.. وبالرغم من تجاهلها له، مال من فوق كتفها ومرر أصبعه في

الخليط: «شوكولا».

حذرته بحدة: «لا تفعل هذا».

ـ وإلا؟

استدارت تنظر إليه من فوق كتفها:

ـ وإلا سأضطر لضربك على يدك.

وضمها بين ذراعيه وهو يبتسم لها ابتسامة عريضة، وسألها:

ـ تحاولين ضربي؟

ثم تقدم نحو الطاولة ليلتقط لائحة المشتريات.

ـ هل تريدين هذه الأغراض في الحال؟، لأنني قد أتأخر قليلاً.

كانت تعرف ما الذي يشغله، قالت ببرود:

ـ لا تستعجل بالعودة، لكن إن تسنى لك الوقت أريد أن أطلب منك خدمة.

ـ ما هي؟

فقد صوته بعضاً من دفئه.. بدأ يتلقى الرسالة.

لم ترفع عينيها عن المزيج الذي تعده.

ـ احجز لي مكاناً على أول طائرة متوجهة إلى موطني يوم الأحد..

ولم تستطع تحمل الصمت الطويل الذي تلا هذا الطلب، فأكملت بسرعة:

ـ عليّ أن أوصل الصور إلى مكتب «عطلة في الجزيرة» بداية الأسبوع.. كما وأن لدي عمل...

ـ في ليفربول.. قلت لي هذا.

استدارت تتوسل إليه بصمت أن يفهم، لكن نظرة عينيه القاسية خيبت آمالها.

ـ وأظنك تتوقين للوصول إلى ديارك، وكتابة قصتك، التي ستكسب جائزة كبرى دون أدنى شك.

كم هو مخطئ.. قالت له: «لست صحافية..».

ـ لكن صديقك نيغل «المميز جداً» صحافي.

لن أخبره! أبداً! بقيت الكلمات محبوسة في رأسها.. ووقفت مسمّرة بغضب في مكانها، إلى أن صفق الباب الأمامي خلفه. وقالت في نفسها، لم يعد يهمني شيء.. سيعلم في نهاية المطاف أنني لم أخونه.

وراح يتردد في داخلها سؤال يعذبها، ماذا عن ليلة أمس؟ ألم تكن تعني شيئاً؟ لقد ضمها إليه، وذوبها بين أحضانه وهي تصغي إليه يصب أحزانه وعقدة ذنبه، ولكنه ذهب إلى بوباي.. وكلما أجلت ساعة الرحيل، طال عذابها.

و.. مساء الأحد، سيأتي نيغل، مطالباً بحصته. وهي مصممة على الابتعاد قبل ذلك بوقت طويل.

عاد شاي باكراً بعد الظهر، ورمى المشتريات على طاولة المطبخ، فضلاً عن تذكرة السفر وكيس يحتوي أفلامها ورفض بحزم دعوتها لتناول غداء متأخر، ثم قصد الشاطىء برفقة تاوني بغية بناء مكان لشوي اللحم.

عاد متأخراً بعد الظهر، وأخذ علبة مرطبات من البراد وقدم لها واحدة، فقبلتها منه شاكرة.

سأل، مستنداً إلى الطاولة: «هل تفحصت أفلامك؟».

ـ سأفعل ذلك عند عودتي.. أحتاج إلى علبة الضوء المكبرة لأختار الأفضل منها.. أفترض أنك أخذت...؟

ـ الصور الشخصية.. إنها جيدة جداً.

ـ اعتبرها مساهمة مني في مجموعة الصور العائلية.

تجهم وجهه، فسارعت تقول:

ـ أنا آسفة.. أظنني لم أحسن القول بعد كل ما أخبرتني إياه ليلة أمس.

ـ بعد ليلة أمس، ظننت أننا تجاوزنا مرحلة انتقاء الكلمات المنمقة بيننا.

ورمى العلبة الفارغة في صندوق القمامة.. واستدار إليها غاضباً:

ـ لقد قمت بقياس الدلائل بوضوح، هل أمضيت ساعات الليل الطويلة تحلمين بنيغل؟ أو ربما بسيزار الوسيم؟

ـ لا!

ـ أظن أنه لم يتسنَ لك الوقت للقيام ببعض الحسابات، وتحديد سعر قصتك.

تملكها غضب عارم. . فأكمل كلامه قائلاً:

ـ من الأفضل أن تذهبي لارتداء ملابسك. . فجين وبول يتوقعان وصولنا بعد نصف ساعة.

ـ أفضل البقاء هنا.

ـ إنهما يتوقعان حضورك.

قاومت إغراء تحديه. . فقد بدا لها قادراً على أن يجرها إلى هناك.

ـ إن كنت تصرّ.

ـ في هذه الحالة بالذات، أخشى أن أكون مصرّاً.

ـ وماذا تقصد بذلك؟

ولكنها ما لبثت أن ندمت على سؤالها، إذ مال إلى الأمام وأمسك ذراعها:

ـ أقصد. . أنه في المرة القادمة التي تدعوني هاتان العينان الرماديتان الكبيرتان، لا تتوقعي مني أن أتصرف كسيد مهذب، إن غيرت رأيك في آخر لحظة.

كادت تنفجر: «سيد مهذب!».

ـ يا إلهي. . وهل تظنين أنه كان من السهل عليّ إبعادك عني ليلة أمس؟

وأخذت أصابعه تداعب ذراعها وهو يشدها إليه. . كانت أنفاسها متقطعة، عيناها أسيرتا عينيه الساحرتين اللتين تثيران فيها مشاعر ملتهبة.

ـ لكنك ضيفتي يا صوفي. . ليس من اللائق أن أجرك إلى فراشي. أليس كذلك؟

كانت تدرك أنه على وشك أن يعانقها، ولن تسمح له بذلك. . فانتزعت نفسها منه وهي تقول: «خاصة إن كان هناك من ينتظرك!»

فاجأه كلامها: «ماذا تقصدين بحق السماء؟».

ـ أوه. . لا تكن خجولاً يا شاي. حين جاءت پوپاي، لم تكن بالضبط. . .

ـ كانت پوپاي هنا؟

ـ لقد أتت تأخذ مخطوطة كتابك.

ـ هل رأيتها تأخذ شيئاً؟

ـ كلا. . أنا لم أبق معها، لأنني لا أجد صحبتها مشوقة.

دفع بها نحو المكتبة، وأزاح لوحة بيده إلى الخلف ليكشف عن الخزنة. . كان بحثها إذن من دون جدوى. . لم يخطر لها أنه يحتفظ بخزنة.

رمى حفنة الأوراق المكتوبة على المنضدة: «ها هي!».

ـ أنا لا أفهم.

ـ أصبحت پوپاي مقتنعة، والفضل لك، أنني أحتفظ بكتاب جاهز للنشر. . الواقع إنني أحتفظ بثلاثة كتب. . ثلاثية. . تلقيت هذا الصباح رسالة من زوجها، يقول فيها إنه ينبغي استئجار مرسى في الميناء الجديد وطلب مني موافاته إلى هناك. إنها حيلة من پوپاي لإبعادي عن المنزل، آملة أن تجد مخطوطة الكتاب. . لكنها لم تكن تتوقع أن تبقي مكتوفة اليدين وهي تعبث بمحتويات المكتبة. . لذلك حرصت على ألا تبقي معها.

پوپاي متزوجة. . ؟

ـ لكنها لم.

ـ لا. . لم تستطع العثور على شيء. . والفضل لا يعود لك.

ـ أنا آسفة.

ـ اذهبي وغيري ملابسك يا صوفي، سنتأخر.

كانت الأمسية لتكون أكثر بهجة في ظروف مختلفة، فقد رحب جين وبول بهما بحرارة.. وأحسن سيزار التصرف، فطغى سحره وخفة دمه على مزاج شاي السوداوي، وحين تقدم منها وأشار إلى كرسي إلى جانبها، ابتسمت له صوفي مرحبة.

بدا واضحاً أنه شعر بالتوتر السائد بينها وبين شاي، وكرس نفسه لتسليتها، يخبرها عن عمله كطيار في خطوط جوية تجارية.

قال: «أزور لندن بين الحين والآخر. هل لي أن أتصل بك؟».

ترددت.. إنه رفيق لطيف.. لكن..

قالت متذرعة:

ـ لدي صديقات جميلات.. وأظنهن سيسررنَ بالخروج معك.

قال ضاحكاً: «أعطني رقم هاتفك بسرعة..».

أمسك شاي بذراع صوفي وشدها لتقف:

ـ اسمها غير مسجل في دليل الهاتف.. حان وقت الانصراف صوفي.. فتوم منهك للغاية.

منعها وجود توم في السيارة من التعبير عن رأيها الصريح فيه، إذ تكور الولد في حضنها واسترسل في النوم.. عند وصولهم إلى المنزل أخذه شاي منها، وحمله إلى سريره، رافضاً أي مساعدة منها.

أخذت أفلامها، وصعدت إلى الطابق العلوي، لتوضيب حقيبتها.. إلا أن الحقيبة لم تكن بحوزتها. والتعب بدأ يأخذ منها مأخذاً فارتأت أن تخلد إلى فراشها.

بعد ظهر اليوم التالي، كان جين وبول أول الواصلين مع أولادهما، ونزل بول إلى الشاطىء على الفور ليساعد شاي.. في وقت لاحق، بدأ الأولاد يتوافدون.

فسألتها جين:

ـ كم يبلغ عدد الأولاد المدعوين؟ لا نريد أن نضيع أحداً منهم.

ـ ستة عشر من المدرسة، وأولادك الثلاثة، وتوم.. المجموع

عشرون.

وبعد أن تجمّع الأولاد كلهم، اصطحبتهم إلى الشاطىء.

بذل الأولاد جهداً كثيراً لتأمين لباس رعاة البقر، حتى أن بعض الفتيات حملن المسدسات.. أخذوا يطلقون النار بقيادة توم، ويلعبون لعبة الحرب، إلى أن تردد صدى صوتهم على المنحدر الصخري، وامتلأ الجو برائحة البارود الحاد المتفجر.. وسمح لهم، لمدة عشر دقائق، بتنفيذ معركة ضارية بالمسدسات.. ثم بدأت صوفي تنظم الألعاب بينما أشعل شاي وبول النار لشوي اللحم.

حوالي الساعة الرابعة، بدأ الرجلان بالشوي بينما اصطحبت صوفي وجين الأولاد إلى البحر للاستحمام، وبدا الوقت طويلاً حين قرع شاي على طبق من حديد بملعقة خشبية ضخمة، وسارع الأولاد لتناول الطعام، فتمددت صوفي فوق الرمال، لتغمض عينيها لبضع دقائق.

بالرغم من الليالي الطويلة التي مرت عليها، طردت الأفكار من رأسها.. وكان مصدر راحة لها أن تستيقظ ذلك الصباح لتضع قالب الحلوى في البراد.

سادت البهجة المكان، وتوم يفتح هداياه..

ـ أرجو ألا تكوني نائمة.

بدا صوت شاي وكأنه قادم من مكان بعيد. لكنها رفعت يدها بتكاسل، لم تكن نائمة..

أكمل: «تعرفين أن النوم تحت أشعة الشمس مؤذٍ؟».

لماذا لا يدعها وشأنها؟

ـ صوفي؟

كانت على وشك أن تفتح عينيها حين رشقها بالماء البارد.. فجلست صارخة.

ـ يسرني أنك لست نائمة.

وقف أمامها ضاحكاً، والماء يقطر من على صدره العريض، ومن

شعره الأسود الكثيف.

فقفزت واقفة، ورمت بنفسها عليه. تسمر لبرهة مكانه.. ثم استدار راكضاً، يحثه بهجة الأولاد.

حملته ساقاه الطويلتان بعيداً عنها، لكنها أسرعت، تلحق به خلف مجموعة من الصخور إلى مكان بعيد عن الأنظار.. ثم توقفت.. لقد اختفى.. رأت أمامها كهفاً صغيراً تحجبه تموجات البحر المستمرة.. وتقدمت نحو الكهف. ونادت مترددة: «شاي؟».

ثم صرخت رعباً وقد أمسكها من الخلف ودفعها إلى داخل الكهف.. وأخذت تقول له وهو يديرها ويلف ذراعه حول خصرها: «اتركني!».

قال محتجاً: «لكنك أمسكت بي وأود أن أعرف ما الذي ستفعلينه لي؟».

- لا شيء! دعني يا شاي.. فأنا مبللة!

افتر ثغره عن ابتسامة خبيثة: «هذا صحيح».

ثم اشتدت قبضته عليها.. وشهقت وهي تعي تماماً خطورة الموقف.. وأعادت الصدمة بعضاً من السيطرة على أحاسيسها المضطربة.

- شاي.. الأولاد..؟

كانت تريد المقاومة.. ولكنه كان يشدها إلى جسمه الذي لا يلين.. وعيناه الزرقاوان تعكسان السماء الصافية.

- ظننت أنني أمسكت بك..

وشعرت بأحاسيس غريبة تتملك روحها. وأخفضت عينيها لتخفي مشاعرها.. وبقيت للحظات جامدة، تنتظر.. وفتحت عينيها حين سمعته يقول:

- لقد حصلت على الغرامة يا صوفي.. فلا تكوني جشعة.

أدارها عنه ودفعها بلطف: «أليس من الأفضل أن تعودي وتساعدي جين؟».

سارع توم إليها وهي تعود متعثرة إلى الشاطىء لتنضم إلى الآخرين..

وسأل: «الآن قالب الحلوى؟».

- ليس على الشاطىء، يمكن أن تطفىء الشموع وتقطع القالب حين يأتي ذوو الأولاد لاصطحابهم أصدقاءك. هل تناول الجميع الطعام؟

- بكل تأكيد!

ابتسمت صوفي لمحاولته التكلم بلكنة رعاة البقر، وقالت:

- حسناً. من الأفضل أن نبدأ بمسابقة بناء أجمل قلعة من الرمال!

أقفل شاي الباب خلف آخر الضيوف:

- لم أشعر يوماً بالإرهاق إلى هذا الحد.

بعد إطلاق الألعاب النارية التي حضرها تاوني خصيصاً لهذه المناسبة، قطع توم قالب الحلوى، والتهمه مع الأولاد، بينما كانت صوفي وشاي يهتمان بالأهل.

ووضع يديه على كتفيها لينظر إلى وجهها.

- شكراً لك على هذا اليوم صوفي. لقد أمضى توم وقتاً رائعاً.

وابتسم: «وأعتقد أنني أمضيت وقتاً رائعاً كذلك».

كانت قد صممت على البقاء بعيدة عنه.. ولكنه يقف الآن على مقربة منها ويعرضها لشتى أنواع المخاطر. وسألت بحدة وهي تبتعد:

- أين توم؟

ونظر حوله وقال: «كان هنا منذ برهة».

وجداه نائماً على الكنبة أمام المدفئة، يمسك مسدسه بيده المتسخة..

وقف شاي ينظر إليه لحظات.

- سآخذه إلى فراشه. لماذا لا تحضرين لنا شراباً؟

وحمل الولد النائم إلى الطابق العلوي.

بينما كانت تحضر القهوة جمعت صينية الأطباق والفناجين.. وكانت تدخلها إلى المطبخ حين نزل شاي عن السلم.

- هل استيقظ؟

- لا.. لقد نزعت عنه ثيابه، ووضعته في الفراش، لكنه لا زال متسخاً

ولم ينظف أسنانه.

ـ لا يهم.. هلا فتحت لي هذا الباب؟ وضعت القهوة في غرفة الجلوس.

ـ سأحضرها إلى المطبخ وأساعدك.

ـ لا داعي لذلك.

أخذ الصينية منها ووضعها على رف المجلى.

ـ دعي القرار لي.. فهذا منزلي يا صوفي، ولو أنك قلبت المقاييس منذ لحظة وصولك.

قالت له بتحدٍ وهي تفتح الماء الساخن:

ـ أنت من أرغمني على البقاء.

ـ حسناً.. رحلتك محجوزة للغد.. ولا شيء يستبقيك على ما يبدو.

رمت كومة أطباق في الماء وبدأت تغسلها: «عظيم».

وبينما كانت تكوم الأطباق بشكل فوضوي، راح شاي يجففها ويرتبها.

مدت يدها لتأخذ كأساً من الكريستال.

ـ احترسي وأنت تغسلين الكؤوس؟

أخذت تغسل الكأس بعنف مكبوت، ثم وضعته ليجف بعناية مبالغ فيها. ولما مدت يدها لتأخذ الكأس التالي أمسك معصمها.

ـ قلما يهمني أمر الكؤوس يا صوفي.. ولكنني لا أريدك أن تجرحي نفسك.

اغرورقت عيناها بالدموع. وعضت على شفتها تحاول يائسة أن لا تدعها تنهمر.

ـ صوفي؟

ردت بصوت متكسر: «نعم؟».

ـ ما الأمر؟

أدارها لتواجهه، لكنها رفضت رفع نظرها إليه.

ـ ما الأمر؟

أصيبت بالفواق وهي تكبت دموعها وتواجهه: «حسناً..».

مسح الدموع بإصبعه:

ـ ألأنني لم أعانقك بعد ظهر اليوم؟

اللعنة عليه! لماذا يقرأ دوماً بين السطور؟ ولماذا يقول ما يراه بصوت مرتفع؟

همست: «لكنك عانقتني».

ـ ليس بالطريقة التي يريدها كلانا.. ولا بد أنك أدركت..

ـ أوه!

ـ كما أن التوقيت لم يكن ملائماً، صحيح؟ والآن، هل يمكن أن ننهي غسيل الكؤوس؟ أم أن هناك شيئاً آخر في بالك؟

ـ أوه.. أجل.. الكؤوس.

واستدارت نحو المجلى لتنهي عملها.

ـ أنا آسفة، لا أظنني قادرة..

وأحست بساقيها تخونانها.

سمعته يتمتم من بين أسنانه ثم حملها بين ذراعيه إلى غرفة الجلوس، ووضعها على الكنبة قرب المدفئة.. وتمتم قائلاً: «هذه سخافة يا صوفي».

لكنها لا تجد الأمر سخيفاً. فهي تريد أن تدفن وجهها في دفء عنقه، وتتركه يضمها، لكنها قاومت أحاسيسها المتهورة، وأبعدت نفسها عنه.

ـ هل هذا صحيح؟ أنت من أصر على لعب دور السيد المهذب.

ـ كنت مضطراً.

نظرت إليه خلسة من تحت رموشها الطويلة، وقالت: «ربما استطعت أن أجعلك تغير رأيك».

كتم أنفاسه وقد تضرج خداها خجلاً.. وقال محذراً: «صوفي.. ماذا سأفعل بك بحق السماء؟».

ازداد خداه احمراراً، وهمست في عنقه:

ـ كنت آمل أن تدرك يا شاي . . إنني لم أحَظَ يوماً بفرصة التدريب الفعلي.

ساد الصمت بينهما:

ـ أتحاولين اغتنام الفرصة للتجربة؟

***

١٠ ـ من ينقذها الآن؟

للوهلة الأولى، لم تخترق كلماته الدفء الذي كانت تولده ذراعي شاي حولها، إلا أنها ما لبثت أن مزقت الوهج الزهري، بقسوة، فسارعت صوفي إلى التخلص من ذراعيه، ولم يحرك ساكناً للتمسك بها.

لقد قطعا مسافة طويلة جداً في بضعة أيام، لكن كلامه هذا أعادها إلى واقع علاقتهما، فحين جاء بها أول مرة إلى البرج، فتش حقائبها، وعرف أشياء عنها لم يعرفها رجل آخر . . فظن أنها تكذب عليه.

وبعد أن تمكنت أخيراً من الكلام قالت له:

ـ لعلي ما زلت عفيفة في الثالثة والعشرين يا شاي بوكانن . . لكن هذا لا يجعلني غبية، فشقيقتي . . .

وتكسر صوتها بالألم من عدم تصديقه لها:

ـ . . شقيقتي التوأم، كانت أماً من دون زواج في السابعة عشر من عمرها . . وقد ترك ذلك في نفسها تأثيراً لا يمحى . . وليس لدي النية . .

ورأت ابتسامة ترتسم على شفتيه، فقالت بغضب: «ليس الأمر مضحكاً!».

كان يبعد عنها خطوة واحدة . . وذراعاه حولها تمنعانها من الحراك.

ـ أنا موافق يا حبي . . ليس الأمر مضحكاً أبداً، لكنني . . .

رفع وجهها، وأجبرها على النظر إليه:

ـ أخبريني . . منذ متى وأنت تحملين هذا السر معك؟

احمر وجهها، وارتفعت يداها إلى خديها الملتهبين:

www.elromancia.com

- منذ. . وهل تظن أنني تجاوزت عمر العوانس؟

أجاب بنبرة جدية: «في الواقع لست مستعداً للمخاطرة».

- أنا. . لم أفكر. .

سمح أخيراً لنفسه أن يبتسم.

- أتعرفين صوفي. . هذا أحد الأشياء التي أحبها أكثر فيك؟ فأنت سريعة الانفعال. بدأت أصدق أنك غير قادرة على الخداع.

وضمها إلى صدره، ودفن وجهه في شعرها.

وكان يتردد في أعماقها صوت صغير يقول لها: من الأفضل أن تخبريه يا صوفي. . وفي الحال. . لكنها تجاهلت الصوت، وأغرقت نفسها بين أحضانه.

بعد قليل، أبعدها عنه ونظر إلى وجهها.

- صوفي ناش. . أتعرفين أن نظرة منك قد تحطم قلب أي رجل؟

- أنا. . لا أريد أن أحطم قلبك يا شاي. . ولن أؤذيك بأية طريقة كانت.

قال لها بصوت متهدج:

- سأذهب لأعد المزيد من القهوة. . علينا أن نناقش بعض الأمور.

تمتمت: «لا. . لا تذهب. .».

ومدت يديها إليه بذعر مفاجىء لفكرة أنه سيتركها لوحدها.

- . . يجب أن أخبرك. .

أخذ نفساً عميقاً:

- إن لم تدعيني أذهب يا صوفي، قد تلقين مصير أختك.

- أنا. . لم أعد في السابعة عشرة شاي.

تمتم لاعناً: «أنت تلعبين بالنار يا صوفي. . أنا لست من حجر».

أرادت أن تحتج ولكنه كان قد دخل إلى المطبخ.

- شاي. .

ولاحظت أنها تكلم نفسها.

- يا لحماقتي!

وتكورت في مقعد بذراعين، ووضعت خدها على الذراع العريضة، واستغرقت في أفكارها.

بينما كانت مستلقية على الكنبة راحت تقلب الصور التي جلبتها جين لهما ليشاهداها. . كانت معظمها لقطات لليوم الذي أمضياه على الشاطىء، إلى أن وصلت إلى صورة شاي وتوم يضحكان معاً على تفاحة حمراء، فابتسمت إذ كانت الصورة رائعة فعلاً، ولكنها تنبهت فجأة أنه لو شاهد الصورة لظن أنها التقطتها عمداً، وخططت لها. . فدستها في جيب بنطلونها القصير وهي تسمعه يقترب.

استدارت، وهي ترغم نفسها على رسم ابتسامة على شفتيها، خشية أن يلاحظ اضطرابها. . ولكنها ما لبثت أن تناست أمر الصور وهي ترى الرجل الآخر، يدخل برفقة شاي. . إنه نيغل. . أحست للحظة وكأن العالم يدور حولها. . لا يمكن أن يكون هو. اليوم السبت، ولديها يوم آخر قبل أن يأتي نيغل ليطالب بسعادتها مقابل سعادة جيني. . وهل هناك وقت للشرح؟ أو لإخبار شاي الحقيقة. . لم يعد أمامها متسع من الوقت.

لمحت الغضب في عيني شاي، وعرفت أن لا شيء قد تقوله سيصلح الأمور.

قال شاي بصوت حاد: «الديك زائر يا صوفي. . لقد وصل الفارس لإنقاذك. . على ما يبدو».

نظر إليها وكأنه يراها للمرة الأولى: «لكنه تأخر في الوصول».

قالت بغباء: «لم أسمع الباب. .».

- هذا لأن صديقك كان يرسل لك إشارات بواسطة أنوار سيارته متوقعاً أن تلاحظي وجوده. . هل هذه هي الإشارة التي اتفقتما عليها حين جاء آخر مرة؟

قفزت واقفة: «شاي. . هذا ليس. . أنا لم. .».

لكن نيغل قاطعها: «آسف إذا كنت قد قاطعتكما في شيء حبيبتي،

لكن موعدنا تغير . . ولم أستطع الانتظار حتى الغد».

قالت باكتئاب: «ليس لدي شيء لك نيغل».

حذرها نيغل: «كان بيننا اتفاق . . أتذكرين جيني؟».

نظر شاي إلى الرجل بقرف:

ـ اتفاق؟ إذا كنت تريد الصورة فلقد أفسدتها.

لكن نيغل لم يكن ليهتم برأي شاي به . . كان معتاداً على أن ينظر الناس إليه وكأنه شيء قذر . . وقال بصوت ماكر:

ـ أعرف . . لقد أخبرتني هذا حين جئت . . .

ومرر يده على ذراعها.

تأوهت بصوت منخفض لتلميحاته الماكرة.

ـ لكنها أكدت لي أنها ستحصل على شيء أكثر إثارة للاهتمام بعد امضائها أياماً معك.

تحولت عينا شاي إلى شظايا من الصوان، وتلاشت كل الألوان منهما.

ـ وهل كان هذا اتفاقكما؟ من سوء حظكما معاً أنني لم أغتنم الفرص التي اتيحت لي.

نظر إلى صوفي: «لا تكن قاسياً عليها . . لقد بذلت جهدها».

كان وجهه شاحباً، لا يبدو عليه أي تعبير، تقدم خطوة نحو نيغل وقال:

ـ لكن، من الأفضل أن تأخذ . . السيدة . . إلى ديارها الآن. أنا واثق أن لديها أكثر مما يكفي لإثارة قرارك.

تراجع نيغل نحو الباب، وقد غابت الابتسامة عن وجهه.

واستدارت صوفي إلى شاي، مصممة أن تقنعه أن كل هذا ليس من صنيعها.

ـ شاي . . أصغ إليّ . . .

اتجهت عيناه إلى وجهها . . عينان ممتلئتان بالاحتقار، وقال متجاهلاً

توسلها:

ـ أعتقد . . أنكما كلما أسرعتما بمغادرة منزلي كلما كان أفضل.

قال نيغل: «تعالي يا صوفي».

نظر شاي إلى صوفي أخيراً، وتحرك فجأة إلى نيغل وقال: «ألا زلت هنا؟».

تراجع نيغل خشية أن يرميه شاي خارجاً بالقوة.

ـ سأنتظر في السيارة بينما تحضرين أغراضك.

وفر هارباً.

حاولت أن تتحرك . . أن تتقدم نحو شاي، أن تقول له، أن تجعله يفهم أنها لم تكن تريد التآمر مع نيغل لكشف أسراره . . لكن، بدا لها ذلك من دون جدوى، وشعرت بتصلب في ساقيها وذراعيها، وتوقف عقلها عن العمل أمام نظرات الاشمئزاز التي كان يرمقها بها. هل مرت خمس عشرة دقيقة فقط منذ كان يضمها إليه؟ يعانقها؟

قال بصوت قطع قلبها كحد السكين:

ـ أنا آسف لأنني لم أفهم لهفتك اليائسة إلى أن آخذك إلى فراشي صوفي . . وأضع اللمسة الأخيرة على . . قصتك . . خاصة وأنت تعرضين نفسك بشكل متكرر . .

انفلتت شهقة نحيب من شفتيها، واستدارت راكضة. رمت ملابسها في الحقيبة، تكومها دون أن تطويها . . لقد قال لها إنها قادرة على تحطيم قلبه، حسناً . . لقد حطم قلبها لتوه، ولم يثق بها، ولم يعطها فرصة لتشرح له . . ولماذا بحق السماء يصدقها؟ أو يثق بها؟ فقد كانت بالنسبة له جزءاً من مؤامرة خسيسة، لكنها لم تكن تدرك . . كيف لها أن تعرف أنها ستقع في الحب؟

أغلقت غطاء الحقيبة، ونظرت حولها لآخر مرة . . أحست وكأن علاقتهما بلغت نهايتها . . لكن كيف يعقل ذلك؟ لا شيء قد بدأ . . الحب فقط . . وهذا كما هو واضح لا يلزمه وقت . . حاربت رغبتها بإلقاء نظرة

أخيرة على توم، ونزلت السلم تمر عبر الردهة، وعيناها تنظران إلى حيث كان شاي ينتظرها عندما أمسك ذراعها، توقفت. لكنها رفضت أن تنظر إليه.

سأل: «لماذا؟».

ظنت للحظة.. وللحظة فقط، أن لديها الفرصة لشرح ما حصل ولكنها أدركت في أعماقها أن ذلك لن يجدي نفعاً.

قالت: «كان مجرد عمل».

تركها فجأة، وهي تتجاوز عتبة المنزل في ظلمة الليل وصفق الباب وراءها وأدار القفل.

***

أيقظها صوت المطر، لقد مرت أيام منذ وصولها إلى لندن.. أيام لم يتوقف فيها المطر عن الهطول كما أن جرس الهاتف لم يتوقف عن الرنين، وقفزت مجفلة وقد بدأ يرن من جديد، ونظرت إلى الساعة.. إنها السابعة والنصف. كان يعرف أنها لن تكون موجودة عند الثامنة.. فرفعت السماعة، وتركت السماعة متدلية.. ثم نهضت عن السرير، مرتجفة في برد الربيع الذي يرفض أن يزهر في لندن.

أعدت الشاي، ووضعت البسكويت في صحن، ومع أنها تعرف أنها لن تستطيع أن تأكل... ورن جرس الباب، لا بد أنها سارة، جارتها، تسأل عنها قلقة. لكنها لم تكن سارة.. بل كان نيغل، يضع قدمه داخل الباب قبل أن تصفقه في وجهه.. ودخل بالقوة.

ـ اذهب من هنا.. لا شيء عندي أقوله لك.

أخرج مغلفاً من جيبه، يضعه أمام عينيها، بحيث اضطرت أن تنظر إليه.. وقال:

ـ ذهبت لرؤية جيني ليلة أمس.. إنها مصابة بداء الأنفلونزا السائد في البلد، وتبدو فقيرة جداً.. العدوى تنتشر في مثل هذه الأماكن.. وأتوقع

أن يلتقط ولدها العدوى بسرعة.

قالت بمرارة:

ـ كيف يمكن أن تكون.. شريراً إلى هذا الحد؟

ـ شريراً؟ إنك تقسين علي. كل ما أريده مقابل عنوانها، معلومة صغيرة عن شاي بوكانن.. قال إنك تعرفين الكثير.

ـ ليس لدي ما أقوله لك.

ـ يا للأسف.. شقيقتك..

ـ شقيقتي امرأة ناضجة يا نيغل، وبإمكانها العودة إلى منزل ذويها ساعة تريد.. ولقد لزمني وقت لأفهم هذا.

وخطت خطوة نحوه:

ـ لكن الحقيقة يا نيغل، أنني لا أصدق أنك تعرف أين هي شقيقتي.. أفضيت لك بمكنونات قلبي يوم عيد ميلادنا، فقمت باتصالاتك للعثور عليها.. إلا أنك مقابل المعلومات طلبت مني خدمة صغيرة.. وبما أنني كنت ذاهبة إلى مالطا، ذكرت هذا خلال الحفلة.

وخطت خطوة أخرى نحوه:

ـ كنت على استعداد للقيام بأي شيء.. وكنت تعرف هذا.. أليس كذلك؟ فهذه مهنة من هم أمثالك.

ازدادت عيناه قسوة.. وأمسك المغلف بين أصابعه، ومزقه إرباً.

ـ لن تعرفي شيئاً الآن.. أليس كذلك؟

وقعت القطع على السجادة.. فتأكدت أنه لا يعرف شيئاً عن أختها وإلا ما كان ليرمي بهذه المعلومات.

نظرت إلى وجهه:

ـ أنت لا تفهم يا نيغل.. أليس كذلك؟ حتى وإن صدقتك، فلم يعد الأمر مهماً.

ثم التقطت الأوراق الممزقة، التي كانت كلها بيضاء، وسارت إلى المطبخ ترميها في صندوق القمامة.

لقد وعدت شاي، حين أخبرها قصة ماريا ومات، أنها لن تخونه حتى لو من أجل شقيقتها.

بدأت تشعر بالراحة، لأنها حلت مسألة جيني. ومسحت دمعة تدحرجت على خدها.. قال شاي إنها سريعة الانفعال.. وهذا ما أوصلها إلى هذه الفوضى. لكنها هذه المرة.. هذه المرة فعلت ما رأته الصواب.

عادت إلى غرفة الجلوس، ونظرت حولها، لكن نيغل كان قد انصرف، وتوجهت إلى الباب تقفله خلفه.. ممتنة لأنها لن تراه أو تكلمه مرة أخرى.

تقدمت صوفي إلى الطاولة الصغيرة قرب السرير لتعيد سماعة الهاتف مكانها.. ونظرت إلى ساعتها. أمامها الوقت الكافي لتستحم وتغسل قذارة هذا الرجل، ثم عبست، وركعت على الأرض لتنظر تحت السرير علها وقعت.. لكنها لم تكن قد وقعت. لم تكن موجودة.. اختفت صورة شاي وتوم الجميلة، التي وجدتها في جيب سروالها القصير بعد رحلتها الكابوسية إلى بلادها، الصورة التي كانت قرب السرير في إطار فضي..

نيغل!

أسرعت إلى الهاتف، واتصلت بالشرطة، فالإطار أثري، لذا يمكنها الإبلاغ عنه بتهمة السرقة، ولكنها أدركت أن الوقت يداهمها. وعليها أن تحذر شاي، وثمة طريقة واحدة فقط لهذا.

كان البرج قائماً كما رأته في أول صباح جاءت تبحث فيه عنه.. لعل الحجارة التي بلون الزبدة كانت مغبرة أكثر بقليل.. وزهور الربيع قد تفتحت براعمها.

بدا لها وهي تقف أمام الباب الأمامي الكبير، أن إسراعها بالعودة إلى الجزيرة لتحذير شاي مجرد حماقة متطرفة، فقد يغلق الباب في وجهها ويرفض التكلم معها، لكن عليها أن تحاول.

رفعت يدها إلى قارعة الباب الأثرية.. وقبل أن تعلن عن وجودها

انفتح الباب، وظهرت تيريسا وهي تصرخ:

ـ آنسة صوفي! ديو غراندي!

ثم تطلعت حولها: «أين السيد شاي؟».

ـ أليس هنا؟

رفعت تيريسا عينيها إلى السماء: «لا.. إنه..».

وتوقفت.. ثم أكملت مقطوعة الأنفاس:

ـ يجب أن تأتي معي.. ساعديني.

ثم أخذت تتكلم بلغتها.

ـ تيريسا!

أصمتت اللهجة الحادة في صوت صوفي المرأة!

ـ أخبريني! ما الأمر؟

أشارت المرأة إلى المنحدر الصخري، ثم دفنت وجهها في مريلتها، ولحقت صوفي بالإشارة، والعبوس يجعد جبينها.. ثم أمسكت ذراع تيريسا بقلق مفاجىء عصر قلبها:

ـ هل هو شاي؟ هل هو على المنحدر الصخري؟

أخذت تيريسا تعوّل وتنحب، وتهز رأسها، فأدركت صوفي فجأة ما حصل.

ـ أوه.. لا، أرجوك يا إلهي.. لا.. أين هو شاي؟

ـ لقد خرج.. خرج..

خلعت صوفي حذاءها العالي الكعبين، وبدأت تركض نازلة في إلى الشاطىء، وإلى الكهف ثم فوق الصخور، وهي تدرك أن توم بحاجة إلى مساعدتها.

كتمت أنفاسها حين شاهدته متسمراً مكانه.. على ارتفاع ثلاثين قدماً.. شاحب الوجه.. وبدا لها صغيراً جداً، ونادت بلطف:

ـ توم، أنا صاعدة إليك.. اصمد قليلاً.

لم يتحرك ولم يتكلم، من شدة الخوف. فحاولت البحث عن أفضل

طريقة للوصول. . ثم أمسكت بمواقع اليدين وهي تتضرع إلى أي قديس يرعى الأغبياء والأولاد الصغار. لكنها لم تكن صبياً مغامراً. . ولا شيء يمكن أن يغويها لتعود إلى ذلك المنحدر مرة أخرى. . ما عدا الحب.

كان التسلق بطيئاً ومؤلماً، بالنسبة لأطراف لم تعتد على التسلق. . لكنها تعلمت درسها في المرة السابقة. . ولو حاولت أن تسرع، فلن تنجح. . ومن أجل توم، عليها أن تنجح. . والحقيقة أن التسلق ليس صعباً لو أن المرء لا ينظر إلى الأسفل، أو يفكر بأنه قد يقع. . وبأن مات بوكانن لاقى حتفه حينما كان أخوه يحاول الوصول إليه.

بدأ توم بالعويل قبل أن تصل إليه بقليل، اخترق صوته قلبها وهذا دفعها للإسراع ولما أصبحت على مقربة منه، قالت له بصوت ناعم: «مرحباً يا شريك».

لاحظت أن وجهه يتجعد. . لكنها لا تريده أن يبكي، بل تريد أن يساعدها على إنقاذ نفسه، وإلا قضيا معاً. رمت بنفسها فوقه، فأحس الصغير بأنها تحميه، فاسترخى على الفور.

قالت: «هلا حاولت الوصول إلى الحافة؟».

وبعد لحظات طويلة، هز رأسه موافقاً.

خطر لها أولاً أن تنزل به إلى الأسفل، حتى يخف خطر الوقوع مع كل خطوة. ولكن بعدما تسلقت هذه المسافة كلها، كانت متأكدة أن أياً منهما لن يصل. كما أن الحافة أصبحت على بعد أقدام عنهما. نظرت للحظة إلى فوق، آملة أن ترى وجه شاي المألوف، واليد القوية الممدودة للمساعدة. . ثم صرّت على أسنانها خائبة. . لن يساعدهما أحد.

تحسست مواطىء الأيدي، ووجدت نتوءاً صلباً في الصخر، به صلباً. ورفعت نفسها إلى الأعلى، ودلت توم أين يضع يديه. وما إن نجحت بذلك، حتى استعادت ثقتها بنفسها قليلاً، ثم سمح لها توم بمساعدته إلى أن جلس على الحافة، وأصبح هو على الأقل، آمناً.

بقيت للحظات في مكانها، متألمة متعبة، وخائفة جداً. لكنها كانت

تعرف أن عليها أن تقوم بالجهد لتنضم إلى الصبي فوق الحافة، قبل أن تخونها قواها، ومدت يدها إلى نتوء صخري آخر. . لكن، وبينما كانت تنقل ثقلها من يد إلى يد، انفلت الصخر من مكانه، وتهاوت مؤقتاً في الفضاء، فخفق قلبها بشدة من الذعر، وتصبب العرق من جبينها وشفتها العليا. . وعرفت أنها ستموت.

ثم وجدت أصابعها الباحثة شيئاً صلباً، وتمسكت به بسرعة. مال توم ليساعدها، فصاحت بحدة وهي ترى الوجه الأبيض فوقها: «ارجع إلى الوراء».

ابتلعت ريقها، وحاولت أن تبتسم.

ـ آسفة يا توم. . سأكون على ما يرام، اجلس إلى الوراء فقط. . وابتعد عن الحافة، سأرتاح قليلاً.

حاولت تجاهل العرق المتصبب من أصابعها، والألم الذي في صدرها. . كان الإحساس بتجربتها السابقة في هذا المكان يغمرها، وهمست بحرارة: شاي. . لكن شاي لم يكن هناك لينقذها.

ـ هل يمكن أن أعرض عليك المساعدة يا صوفي ناش؟

وأجفلت ظناً منها أنها بدأت تتخيل أشياء لا وجود لها، إلا أن الصوت اللطيف بدا حقيقياً بحيث لم تستطع منع نفسها من النظر إلى قمة الصخر. . لكن، لم يكن هناك أحد، ونظرت إلى توم، يتراجع خائفاً فوق الحافة. . إنه الآن في أمان. . لقد فعلت هذا من أجل شاي. . وهذا هو كل ما يهم. . وأسندت جبهتها على الصخر.

ثم شعرت بشاي إلى جانبها، وقد وضع ذراعه حولها، ودفعها إلى الحافة إلى جانب ابنه.

نظرت إلى وجهه المتجهم وقالت:

ـ شاي؟ من أين أتيت؟ تيريسا قالت. .

أشار إلى قمة المنحدر الصخري على بعد ياردات فوقهم، وقاطعها:

ـ هل لنا أن نكمل الاستجواب بعد أن تصبحا بأمان؟ اجلسي هنا ولا

تتحركي، سأعود إليك.

ثم جعل توم يقف، وأغراه ببطء وحذر أن يتسلق ما تبقى من المنحدر. . كانت صوفي تتألم وهي تراقبهما يقطعان المسافة، وصوت شاي الهادىء يدل توم على الطريق. . لماذا لا يحمله بحق السماء ويضعه فوق الحافة ويتأكد أنه في أمان؟

انتهى الأمر بسلام، فتنفست الصعداء وقد تلاشى الإحساس بالتوتر من جسمها.

ـ جاء دورك يا صوفي ناش.

بدا لها من تعابير وجهه، أنها أخطأت بالعودة، لأنه ما يزال غاضباً منها.

قالت بعناد وهو يأمرها أن تضع ذراعيها حول عنقه: «أستطيع تدبير أمري».

ـ حقاً؟ لا أعتقد هذا.

ثم أضاف بنبرة أكثر لطفاً: «دعيني أساعدك».

وبدأ قلبها يدق بسرعة أكبر.

ـ بالرغم من التحدي الذي لا شك فيه.

ـ بالرغم من كل شيء. . تعالي يا صوفي. . فلنعد إلى البيت.

وتسلقا معاً إلى القمة. . ويده خلفها، تثبتها، تساعدها، تطمئنها. . ثم رفعها فوق الحافة.

كان توم ينتظر، وتيريسا كذلك، جاثية فوق الصبي، تبكي وتمسح عينيها بمريلتها، وذراعاها تحتضنانه، وتهزانه بلطف. لكن، حين شاهد توم صوفي، ابتعد عن تيريسا.

قال وهو يرمي نفسه عليها:

ـ لقد عدت يا صوفي. . هل ستبقين الآن؟ ألن تذهبي مرة أخرى؟

قال شاي بصوت حاد:

ـ توم! أليس هناك شيء تقوله لصوفي؟

تجهم وجه الصبي:

ـ أنا. آسف. . يا صوفي.

ـ وهل أنت آسف حقاً؟

وأخذته بين ذراعيها تحتضنه. . وتهمس له:

ـ أنهمك. . كان تحدياً.

نظر إليها بعينين مترددتين، ثم عرفت لماذا دفع شاي الصبي ليتسلق الياردات القليلة بنفسه.

قالت: «لكنك نجحت، لقد تسلقت المنحدر مثل العم مات وبابا، ولن تفعل هذا مرة أخرى».

ولمست الراحة في عيني الطفل قبل أن يرمي ذراعيه حول عنقها. . وأحست به يرتجف.

حمله شاي وضمه إليه قليلاً قبل أن يعطيه لتيريسا.

ـ خذيه إلى الكوخ يا تيريسا، وساعديه على الاستحمام، ثم أعطيه شيئاً يأكله! لا بد أنه جائع.

داعب شعر الصبي:

ـ اذهب الآن توم، سنأتي لرؤيتك فيما بعد.

ـ ولماذا وضعته في الكوخ؟

ـ لأن أشياءه هناك. . رتبت له أمر البقاء مع تيريسا وتاوني بينما أنا في لندن.

نظرت إليه: «لكنك لست في لندن».

ـ لا. . لست هناك.

ـ شاي. . أعرف أنك لا زلت غاضباً. .

ـ غاضب؟ بالطبع أنا غاضب.

تراجعت إلى الوراء وكأنه صفعها. . وتمتم شاتماً، ثم قال بقسوة: «أوه صوفي».

أمسكها ليضمها إلى صدره:

ـ أنا لست غاضباً منك. لقد خاطرت بحياتك لإنقاذ توم. . وكأنك لا تعرفين. . .

ارتجف بألم: «أنا غاضب من نفسي، لأنني لم أدرك كم كان جاداً. . ولقد حذرتني».

استقام وأبعدها عنه، وابتسم ابتسامة جانبية.

ـ علينا حقاً أن نتوقف عن الالتقاء بهذه الطريقة.

قالت موافقة: «مرتين أكثر مما يكفي».

وضع ذراعه على كتفيها:

ـ لن أضطر على الأقل، هذه المرة إلى حملك. . أليس كذلك؟ أنت ترتجفين.

ـ أنا. . آ. . آسفة.

ثم بدأت أسنانها تصطك، وأخذت ترتجف، وخانتها رجلاها. فرفعها بين ذراعيه.

ـ تعالي. . أعتقد أن كلانا بحاجة إلى القهوة.

نظرت إليه من تحت ستارة رموشها الطويلة وهي تدرك أنها على وشك القيام بأكبر مخاطرة لها في حياتها، أسوأ بكثير من مخاطرة تسلق المنحدر. فنتائج سوء الحكم نهائية.

ـ لقد وعدتني يوماً. . بنقاش.

أوقفها بحذر شديد على أرض غرفة الجلوس، وأدارها إلى ذراعيه.

ـ هذا صحيح. . وسنجلس لنتناقش طويلاً. . لكن ليس الآن، أريدك أن تقابلي أحدهم.

للوهلة الأولى، لم تفهم شيئاً، تقدمت نحوها امرأة شابة شقراء الشعر. مألوفة بشكل غريب، مع ذلك. .

ـ مرحباً يا صوفي.

ـ جيني؟

وخطت صوفي خطوة مترددة إلى الأمام. . ثم طارت إليها،

تحتضنها، تبكي وتضحك في آن واحد.

ـ أوه. . جيني.

ثم رأت جيني الصغيرة تختبىء بخجل وراء أمها.

ـ هذه كايت.

انحنت صوفي: «مرحباً يا كايت. . أنا خالتك صوفي».

لامست الطفلة وجهها: «إنك تشبهين مامي تماماً».

ـ أجل يا حبيبتي. . مثلها تماماً.

أخذ شاي يد الصغيرة:

ـ تعالي يا كايت. . مامي وصوفي لديهما ما يقولانه. سنذهب لنجد توم، وسيريك مهرته وقد يدعك تركبين عليها.

بعد مرور ساعات طويلة، ذهبت الأختان للتفتيش عن شاي وكايت وتوم. . كان الثلاثة في الكوخ يتناولون الغداء، وأشارت لهما تيريسا بالجلوس وأحضرت طبقين إضافيين.

ـ شاي. .

ـ فيما بعد يا صوفي. . سنتكلم فيما بعد.

وقالت لها عيناه: «حين نجلس على انفراد».

ـ لكنني لا أفهم. . لماذا جئت بجيني إلى هنا؟

ـ لأنني حين أخذتها إلى شقتك، قالت لنا جارتك أنك أسرعت بالعودة إلى مالطا لسبب طارىء. . وكان هذا هو العنوان الذي معها، هكذا لحقنا بك. . لماذا. . ؟

لكن صوفي قفزت واقفة:

ـ يا إلهي. . لقد نسيت تماماً. . سرق نيغل صورة لك ولتوم من شقتي.

ـ متى؟

ـ هذا الصباح.

لم يحاول أن يطرح عليها أي سؤال بل وقف وأمسك بذراعها:

«أعذرينا جيني».

سأل وهو يسير معها إلى البرج: «أخبريني».

وبأنفاس مقطوعة شرحت له ما حدث.

كان على منضدته جهاز هاتف جديد، وطلب منه رقماً.

- بوباي؟ هذا شاي بوكانن.. لا تتكلمي، أصغي فقط.. أريدك أن تتصلي برئيس تحرير مجلة «سيليبرتي».. سيقدم إليه أحدهم صورة لي مع توم.. شخص اسمه نيغل فيليبس. وهذه الصورة مسروقة.. قولي له إن استخدمها سأقيم عليه دعوى قضائية بصفته شريكاً في جريمة السرقة.

أصغى إليها قليلاً.. ثم أضاف:

- حسناً.. إن كان على استعداد للمخاطرة، فمن الأفضل أن تصدري بياناً صحافياً، لإعلان صدور مؤلف جديد لشاي بوكانن في الخريف..

وصمت بسبب أصوات الاهتياج التي تعالت من السماعة.

- أجل.. أجل.. ستصلك المخطوطة مع مراسل خاص، ويمكنك كذلك أن تذكري أنني سأتزوج.

نظر إلى صوفي التي صدرت عنها شهقة مخنوقة وابتسم:

- لقد قابلت العروس.. أجل، إنها صوفي ناش، متى؟ حسناً، الترخيص في جيبي.. لذا لا تزعجي نفسك بالاتصال، لأننا سنكون في شهر العسل.

أمسك يد صوفي وشدها إلى جانبه:

- أين؟ عزيزتي بوباي.. هذه معلومات خاصة.

وضحك.. ثم ضغط زر إنهاء المكالمة.

قالت صوفي محتجة مقطوعة الأنفاس قليلاً:

- شاي.. لا يمكن.. لا يجب.. كل العلنية.. ستدمر كل شيء عملت لأجله..

- لا يا حبي.. وهل كنت تشكين في حب جد توم له؟

- وهل نجح الأمر؟

- كانت الدقائق الأولى صعبة قليلاً. ولكنك تعرفين توم.

أمسك ذقنها يرفعه إلى أن أصبحت تحت رحمته تماماً.

- وتعرفينني. لقد حذرتك مرة أنني على استعداد لاحتجازك هنا قدر ما أشاء.

- مسجونة في أعلى برجك؟

- إذا كان هذا ضرورياً. سأسألك سؤالاً.. وأريد أن تجيبي بنعم.

- لكن، علي أن أشرح لك.

- لا.. لست مضطرة. قلت إنك لن تفعلي شيئاً يضر بي وبتوم.. وما كان علي أن أشك فيك.. هل يمكن أن تسامحيني؟

- لا شيء هناك..

- أريد سماعك تقولين نعم.. هل يمكن أن تسامحيني؟

- نعم يا شاي.

قال بإصرار: «أقنعيني».

وجذبها إلى ذراعيه.

رفعت يديها ببطء.. وببعض الخجل، لتمسك بوجهه بينهما.. وقفت على أطراف أصابعها لتعانقه.. وكان عناقاً حلواً، ورائعاً، كأنه المطر بعد الجفاف.. أخيراً سألت: «هل أقنعتك؟».

أمسك يديها: «ستتحدث في الأمر مطولاً بعد أن أحل جميع مشاكلي..».

- وكيف وصلت إلى جيني؟

- شيء قاله نيغل.. تذكري جيني.. ولقد سألت عن فيليبس.. وعلمت أن لديه سوابق قذرة.

- قال إنه وجدها في أحد تلك الأمكنة التي تقدم المنامة وطعام الإفطار..

- إنه كاذب.

- أجل.. وكنت غبية جداً لأنني صدقته.

www.elromancia.com

ـ لا يا حبيبتي . . كنت ضعيفة . . ومن يهتم للآخرين يقع دائماً تحت رحمة من لا ضمير له . . لكن يجب ألا أن نقسو كثيراً عليه .

سألت ساخطة : «ولماذا لا؟» .

ـ لولاه لما التقينا . . ولما تمكنت من طلب يدك . . هل ستتزوجينني؟

سألت بصوت متكسر : «وهل تريد أن أقول نعم؟» .

ـ إنك تقرئين أفكاري يا حبيبتي .

ـ حقاً؟

ودست ذراعيها حول عنقه ، وتلاعبت ابتسامة صغيرة حول فمها .

ـ أقنعني . . شاي .

ومر وقت طويل فيما بعد قبل أن تتمكن من النظر إلى ذلك الوجه الرائع المتكبر القوي . . وللحظات طويلة ، أمسك العالم كله أنفاسه وانتظر .

قالت : «أجل . . أجل شاي . . أحبك!» .

* * *

www.rewayatromancia.com
روايات رومانسية